دراسات اسلامية هادفة




# جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك

زياد أبو غنيمة




جوانب مظلمة في تاريخ
العثمانيين الأتراك

**الطبعة الأولى**





**١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م**

الرقم المتسلسل (٧٢)

الطابعون

**جمعية عمال المطابع التعاونية**

عمان - تلفون ٢٧٧٧٦ - ص.ب ٨٥٧

نحو صياغة أمينة لتاريخنا الاسلامي



# جوانب مضيئة في تاريخ

# العثمانيين الأتراك



تأليـــف
زياد أبو غنيمة

دار الفرقان للنشر والتوزيع
جبل الحسين [illegible]
تلفون (٦٦٠٩٣٧) — ص.ب ( [illegible] )

# مقدمة الكتاب

باسم الله خير الأسماء ، في الأرض وفي السماء ..

وأصلي وأسلم على قدوتنا ، وزعيمنا ، محمد خاتم الأنبياء ..

وأحمد الله عز وجل حمداً كثيراً ، وأستعينه ، وأستهديه ، وأتوكل عليه ، وأسأله عز وجل أن يجعل هذا الجهد المتواضع خالصاً في سبيله .

وبعـــد ...

فقد كان هذا الدين ، منذ أن شاءت ارادة الله عز وجل ببزوغ فجره ، وما برح ، هدفا لحقد الحاقدين ، ومكر الماكرين ، وكيد الكائدين ، وما فتئت سهام اعداء الله ، على اختلاف مللهم ، وشعاراتهم ، تستهدف هذا الدين ، قرآناً ونبوة ، وتاريخاً .

« ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم ايديهم والسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون » .

سورة الممتحنة ٢

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ... » من آية ٢١٧ البقرة .

ولعلنا جميعاً نتفق على أن أسلحة الافتراء ، والتشويه ، والبهتان ، والدس ، واشاعة الاباطيل ، ضد هذا الاسلام العظيم ، كانت ، وما برحت ، من أخبث الأسلحة التي يشهرها أعداء الله ضد الاسلام ، قرآناً ، ونبوة وتاريخاً ٠

ولقد وجهوا سهام حقدهم ، اول الأمر ، الى قرآننا الكريم ، فطفقوا ، قاتلهم الله ، يحاولون بكل ما جبلوا عليه من خبث ومكر ، التشكيك بالقرآن الكريم ٠

« وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلكم تغلبون » فصلت آية ٢٦ ٠

« وانّ منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » آل عمران : آية ٧٨ ٠

ولكن سهام أهل الكفر التي استهدفت كتاب الله عز وجل تكسرت أمام رعاية الله عز وجل ٠٠

« وانْ كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك لتفتريَ علينا غيره واذاً لاتخذوك خليلا * ولولا أنْ

نبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا » • الاسراء : ٧٣ ـ ٧٤ •

ولما أدرك اعداء الاسلام استحالة نجاح محاولاتهم للافتراء على القرآن الكريم ، عمدوا الى سنة نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام ، فطفقوا يدسّون عليها افتراءاتهم بما اصطلح على تسميته «بالاسرائيليات» ، ولكن الله عز وجل هيا لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم نفراً من العلماء المسلمين المخلصين الذين كشفوا زيف تلك الاسرائيليات وطهروا السنة النبوية المشرقة منها •

أما المجال الذي نجحوا فيه نجاحاً كبيراً في الافتراء والدس والتشويه فقد كان تاريخ هذه الأمة الاسلامية ، لدرجة اننا لا نكاد نجد حقبة تاريخية واحدة من تاريخ الأمة الاسلامية ومهما قصرت فترتها الزمنية قد سلمت من سهام الافتراء والتشويه والدس ، بما في ذلك الحقبة التي شرفها رسولنا صلى الله عليه وسلم بقيادته ، وما حديث الافك عنا ببعيد •

ويزداد الالم في النفوس المؤمنة أن هذه الهجمة الشرسة من الافتراء والتشويه ضد تاريخ أمتنا الاسلامية

لا تقابلها هجمة مضادة بنفس المستوى ، تذب عن تاريخ أمتنا تلك الافتراءات ، وتبرئه من تلك الاباطيل والاكاذيب ·

ولقد تعرّض تاريخنا الاسلامي ، عبر مراحله المتعاقبة ، الى حملات تشويه متعمدة ، تولت كبرها الأحقاد المعادية للاسلام ، صليبيّة ، وصهيونية ، وما تفرع عنهما من مؤسسات تبشيرية ، وماسونية ، واستشراقية ··

ولعلي لا أكون مبالغاً ، اذا زعمت أن الحقبة التي شغلها العثمانيون الأتراك في سفر تاريخنا الاسلامي ، كانت عرضةً لأكثر حملات التشويه ، شراسة ، وخبثاً ·

ولكاني بالكثير من القراء ، يتساءلون ·· !

لماذا استأثر العثمانيون الأتراك بأشد حملات التشويه شراسة ، وخبثا ·· ؟

وأسارع فاجيب على هذا التساؤل ·

انه الحقد ·

الحقد على الاسلام أولا ، والحقد على الأتراك ثانياً ، والحقد على العثمانيين ثالثاً ··

أقول هذا ، وبين يدي الدليل .

انه شهادة شاهد من أهلها ، والفضل ، كما قيل ، ما شهدت به الأعداء .

فلقد عبر عن هذا الحقد ، أبلغ تعبير ، وأصدقه ، المستشرق الألماني فولدكه ، في مقال نشره في مجلة « الاسلام » (Der Islam) الألمانية في عام ١٩٢٤ ، وأورده المستشرق الروسي بارتولد في كتابه « تاريخ الترك في آسيا الوسطى » .

يقول فولدكه :

« ان دخول الترك في العالم الاسلامي المتحضر بعد سقوط دولة السامانيين الايرانية ، كان نكبة هائلة في تاريخ العالم كله » .

وقبل ان يدخل الأتراك العثمانيون في الاسلام ، لم يكونوا موضع اهتمام جاد من المؤرخين المسلمين وغير المسلمين ، فلم يرد ذكرهم الا من خلال اشارات عابرة .

وحين دخل الأتراك العثمانيون في الاسلام ، انقلبت الصورة ، واصبحوا محط أنظار المؤرخين المسلمين وغير

المسلمين ، بَيْدَ أنَّ المؤرخين من غير المسلمين ابدوا اهتماماً ملحوظاً بدراسة تاريخ الأتراك العثمانيين المسلمين .

ولأول وهلة يخيل للمرء أن اندفاع المؤرخين من غير المسلمين في دراسة تاريخ العثمانيين المسلمين ، كان ينطلق من منطلق علمي سليم ، هدفه تتبع تاريخ العثمانيين المسلمين بأمانة علمية منصفة ، ولكن ما أن يطلع المرء على ما أفرزته جهود المؤرخين من غير المسلمين من دراسات عن تاريخ العثمانيين المسلمين ، حتى يكتشف أن الغالبية العظمى منهم قد تجاهلوا ، وتناسوا ، مقتضيات الأمانة العلمية ، والانصاف ، بل أطلقوا العنان لأحقادهم الظاهرة والباطنة ، لتكون هي المنطلق الذي ينطلقون من خلاله في تشويه تاريخ العثمانيين المسلمين والصاق عشرات الافتراءات التي لا تسندها أية بينات تاريخية ، بالأتراك العثمانيين المسلمين .

وليس غريباً أن تصدر مثل تلك الافتراءات عن أقوام فضح الله عز وجل نواياهم تجاه الاسلام والمسلمين في قوله تعالى جل شأنه :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خبالا ودُّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم

وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون » سورة آل عمران : ١١٨ .

ولقد وجه الحاقدون حملاتهم ضد العثمانيين الأتراك في اتجاهين متوازيين :

**الاتجاه الأول :**

ويتمثل في تجاهل جميع الجوانب المضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، مما أدى الى طمس هذه الجوانب المضيئة ، تحت جبال عاتيات من ركام الأحقاد المعادية للاسلام .

**الاتجاه الثاني :**

ويتمثل في الصاق العديد من الافتراءات الكاذبة ، الظالمة ، بتاريخ العثمانيين الأتراك .

ولئن كنا لا نستغرب أن يحمل الحقد الأسود ، أولئك المؤرخين على تجاهل وتناسي أبسط قواعد مقتضيات الأمانة العلمية في عملية التاريخ للأتراك العثمانيين المسلمين ، فان الذي نستغربه أشد الاستغراب، بل ونستهجنه بشدة ، أن ينزلق الكثير من المؤرخين المسلمين ، في حمأة عمليات التزوير ، والتشويه ، والبهتان ، التي الصقت بتاريخ العثمانيين المسلمين .

ولئن انطلقت حملات التشويه والتشكيك على المسلمين عصورا طويلة ، فان من العار أن يستمر هذا الحال ، ولا بد من التصدي لحملات التشويه ، لكشف زيفها ، وتفنيد بيتاناتها ، ان وجد لها بينات ، فما عهدنا بهتانا يستند الى **بينات** .

وقياما بحق الأخوة الاسلامية ، ووفاء لها ، وغيرة على الحق والحقيقة ، رأيت من واجبي ، أن أساهم هذه المساهمة المتواضعة في ازاحة ركام الأحقاد المعادية التي حرصت على طمس الكثير من الجوانب المضيئة ، المشرقة ، التي ازدانت بها صفحات تاريخ أخوتنا في الاسلام ، الأتراك العثمانيين .

وسأركز الحديث في هذا الكتاب في اتجاهين :

**الاتجاه الأول :**

ويتمثل في ازاحة ركام الأحقاد المعادية للاسلام التي طمست لقرون طويلة العديد من الجوانب المضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك وأبرزها :

**أولا :** التزام العثمانيين بالاسلام ، وانطلاقهم في تأسيس دولتهم من منطلق الالتزام بالاسلام .

**ثانياً** : اخلاص معظم سلاطين الدولة العثمانية لمفهوم الجهاد في سبيل الله ، وقيامهم بواجب الدعوة الى الاسلام . خلافاً لما يزعمه الحاقدون ، من أنهم كانوا مجرد محاربين قساة القلوب متحجري العاطفة .

**ثالثاً** : ما أبداه العثمانيون من تسامح ديني كريم تجاه غير المسلمين في الدولة العثمانية . خلافاً لما يزعمه الحاقدون من أنهم كانوا يضطهدون غير المسلمين .

**رابعاً** : ترفع العثمانيين عن الوقوع في متاهات العصبية القبلية أو العرقية أو القومية ، واصرارهم على أن يكون الانتماء الاسلامي فوق أي انتماء قبلي أو عرقي أو قومي .

**خامساً** : الدور الرائد الذي لعبه العثمانيون الاتراك في اعادة لحمة الوحدة الاسلامية لجميع شعوب الأمة الاسلامية ، وتجميع قواها تحت راية واحدة طوال اكثر من خمسة قرون متتالية ، بعد فترة عصيبة شهدت تشرذم المسلمين وتفرق كلمتهم .

**سادساً** : الموقف المبدئي الصلب الذي ينبغي أن يسجل للعثمانيين بماء الذهب تجاه قضية فلسطين ، حيث أصروا - حتى وهم في أشد حالات ضعفهم على -

نعم المفريط بذرة تراب واحدة من أرض فلسطين المسلمة المباركة .

**الاتجاه الثاني :**

ويتمثل في كشف زيف الافتراءات الظالمة التي ألصقت بالعثمانيين زورا ، وظلما ، وبهتانا ، وسأركز في هذا المجال على الافتراءات التالية :

**أولا :** الفرية التي تزعم أن سلاطين بني عثمان كانوا يملكون الحق - بموجب فتوى شرعية مزعومة - في قتل أبنائهم ، وإخوانهم ، وأقربائهم ، حفاظا على عروشهم .

**ثانيا :** الفرية التي تزعم أن السلطان محمد الفاتح، « النعم » به من فاتح ، قد أباح القسطنطينية لجنوده ، عدة أيام ، قاموا خلالها بأعمال النهب والسلب ، والقتل، والاعتداء على الأعراض .

**ثالثا :** الفرية التي تزعم أن العثمانيين كانوا ينتزعون أطفال النصارى قسرا ، ويجبرونهم على الاسلام، ليشكلوا منهم جيشهم الذي عرف في التاريخ باسم الجيش الجديد ، « يني تشري » ، وهو الذي اصطلح على تسميته بالجيش الانكشاري .

**رابعا :** الفرية التي تزعم ان العثمانيين الأتراك كانوا أمة حرب وقتال . وأنهم لم يكونوا أمة دعوة وهداية .

واني لأحسب أن القارئ الفطن ، سيدرك من خلال ما سأورده من حقائق في هذا الكتاب ، أن الحاقدين على الاسلام ، انما يهدفون من وراء التركيز على تحريف تاريخ الأتراك العثمانيين المسلمين ، والصاق الافتراءات الكاذبة بهم ، الى الاساءة الى الاسلام ذاته ، من خلال الاساءة الى الأتراك العثمانيين المسلمين .

أقول هذا ، ولا أنفي ، ان يكون في تاريخ بني عثمان ، وخاصة في عصورهم المتأخرة بعض الأمور التي لا تنسجم مع الاسلام ، وتتعارض مع أحكامه ، وليس الذنب في ذلك ذنب الاسلام ، وانما ذنب المسيء نفسه .

وبعــد ...

فانني أجد من واجبي ان أتوجه بالنداء الى كل غيور على الحق والحقيقة ، ليبادر الى اعادة تقييم معلوماته عن الأتراك العثمانيين .

انني أدعوهــم لمحاكمة هــذه المعلومات واخضاعها للمنطق العلمي ، وأن يحرصوا على التثبت من البينات

التي تدعمها . وانا كفيل بانهم لن يجدوا لهذه المعلومات المفتراة أية بينات تقوى على الصمود في وجه الحقائق الناصعة .

اني أناشد كل عربي ومسلم ، وخاصة جيل المستقبل المنشود ، أن يلفظوا من أفكارهم أية معلومات خاطئة تسربت اليهم من قنوات حاقدة على الاسلام والمسلمين . وأن يتبرءوا من أية مشاعر جفاء ، ولا أقول عداء ، للعثمانيين المسلمين .

ولعلي أكون قد قمت بواجبي كمسلم في الذب عن سمعة اخوتنا في العقيدة الأتراك العثمانيين . وعسى أن يتريث المؤرخون الغيورون على الاسلام . قبل أن يسمحوا لألسنتهم واقلامهم بأن تردد مزاعم الحاقدين على الاسلام من غير تمحيص وتدقيق . فلقد آن الأوان لإعادة الحق الى نصابه . وانه لعار وأي عار أن تستمر اجيالنا المسلمة في المدارس والمعاهد والجامعات ، في تلقي هذه الافتراءات ، وكأنها يقين لا يرقى اليه شك .

اللهم اني قد بلغت ... فاشهد

**زياد محمود أبو غنيمة**

# نبذة تاريخية موجزة عن

# العثمانيين الأتراك

يتفق معظم المؤرخين المسلمين على القول ان الأتراك ينتسبون الى يافث ابن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام، وبعد وفاة يافث خلفه في زعامة قومه ابنه ترك بن يافث . وكان أعقل اخوانه . وأرشدهم . فسار بقومه الى تركستان حيث أصبحت الموطن المستقر للأتراك . ولم يلبث نسل ترك بن يافث أن تكاثر بمرور الزمن ، حتى انقسموا الى شعوب كثيرة كان في مقدمتها شعب الغز ويطلق عليه بالتركية اسم (Oguzlar) ، وشعوب التتار ، والمغول ، والقبجق ، والخزر ، والبجناك .

ويتفق معظم المؤرخين على القول ان العثمانيين الأتراك ينتمون الى شعب الغز ، وينحدرون من عشيرة صغيرة تنتمي الى قبيلة تدعى قايي . كانت تستوطن أراضي دولة خوارزم المحيطة ببحيرة خوارزم أو بحر الخزر الذي يطلق عليه الروس الآن اسم بحر آرال بعد أن أزالوا اسمه الاسلامي « بحر الخزر » .

اما عن دخول الاتراك ، في الاسلام ، فان ارجح الروايات تشير الى ان انتشار الاسلام بين الاتراك بدا بشكل تدريجي ، وبصورة غير منتظمة منذ قام القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي في اثناء خلافة سليمان ابن عبد الملك الاموي بفتح بخارى ومرو وسمرقند وغيرها من بلاد الترك في عام ٩٨هـ وفق عام ٧١٧م ، ثم نشطت الدعوة الى الاسلام بين الاتراك في زمن الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك على يد أشرس بن عبدالله السلمي ، حتى أسلم عدد كبير من الترك فيما بين عامي ١٠٥ ـ ١٢٥هـ وفق عام ٧٢٤ ـ ٧٤٣م ، وفي زمن المأمون أسلم ملك اشروسنة التركي المسمى كاوس واسلم معه قومه .

ويمكن القول ان نقطة التحول الحاسمة في اهتداء الاتراك الى الاسلام حدثت في خلافة المطيع لله ابن المقتدر العباسي ، عندما اسلم زعيم الترك قرة خان في عام ٣٤٩هـ وفق عام ٩٥٤م .

ويعتبر عثمان بن ارطغرل بن سليمان شاه المؤسس الاول للدولة العثمانية . وقد انتقلت زعامة الاتراك العثمانيين الى عثمان في عام ٦٨٧هـ ـ ١٢٨٨م ، اثر

وفاة ابيه ارطغرل . وقام العالم المؤمن اده بالي ، وهو والد زوجة عثمان . بتسليم عثمان سيف والده في احتفال مهيب . واطلق عليه لقب الغازي . تيمنا بالحديث الشريف :

« مَنْ ماتَ ولم يغزُ . ولم ينوِ الغزوَ ، ماتَ ميتةً جاهلية » .

ويعتبر عام ٦٩٩هـ ـ ١٣٠٠م . عاما حاسما في تاريخ بني عثمان . وضع فيه عثمان بن ارطغرل الحجر الأساسي في بناء الدولة العثمانية . ففي ذلك العام ، أغارت جموع التتار على سلطنة قونية السلجوقية التي كان عثمان يعمل في خدمة أميرها علاء الدين كيقباذ الثالث ، واسفرت الغارة عن مقتل الأمير علاء الدين وولي عهده الأمير غياث الدين . فاصبحت السلطنة بدون سلطان ، فوجد عثمان في ذلك فرصة ليعلن زعامته على السلطنة تحت اسم « بادي شاه آل عثمان » . معلنا بذلك ولادة امارة بني عثمان ، التي اصبحت كما يورد الدكتور عبد الكريم غرايبه في كتابه « العرب والاتراك » : ( المنفس الوحيد للحماس الديني في الاسلام ، فجاءها كل راغب في الجهاد ، واجتذبت اليها اعدادا من المتحمسين لنصرة الديـــن ) .

ولم تلبث هذه الامارة الصغيرة أن أصبحت بعد اقل من قرن دولة عظمى ترتعد فرائص أوربا النصرانية هلعا وخوفا منها . ولم تلبث هذه الدولة أن قضت على الامبراطورية البيزنطيـة . واتخذت من عاصمتها القسطنطينية عاصمة جديدة لدولة بني عثمان بعد ان اتم الله عز وجل فتحها على يد السلطان محمد الفاتح في يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الاولى من عام ٨٥٧هـ وفق التاسع والعشرين من أيار من عام ١٤٥٣م .

وتعد الفترة الزمنية التي شغلها الأتراك العثمانيون في سفر تاريخنا الاسلامي أطول فترة استظلت فيها الامة الاسلامية براية واحدة ، فقد حكمت الدولة العثمانية اكثر من ستة قرون متتالية ، منذ أن اسسها عثمان بن ارطغرل في عـام ٦٩٩هـ ـ ١٣٠٠م ، والى ان تمكن مصطفى كمال اتاتورك . بتحريض من اعداء الاسلام . من الغاء السلطنة العثمانية في عام ١٩٢٢م . ثم اتبع ذلك بإبطال مفعول الخلافة الاسلامية في الثالث من آذار من عام ١٩٢٤م .

# الدولة العثمانية

## دولة إسلامية المنطلق ، والراية ، والهدف

في وصية عثمان ابن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية ، لابنه أورخان . كما يوردها الصدر الأعظم كامل باشا ، في كتابه المطبوع باللغة التركية القديمة « تاريخ سياسي دولة علية عثمانية » « أي التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية » . تطالعنا هذه العبارات :

اعلم يا بني ، أن نشر الاسلام ، وهداية الناس اليه، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم ، أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنها »

★ وينقل المؤرخ التركي المعاصر قادر مصر اوغلو في كتابه « مأساة بني عثمان » ، عبارات أخرى من وصية عثمان لابنه أورخان تقول :

يا بني ، انني انتقل الى جوار ربي ، وأنا فخور بأنك ستكون عادلا في الرعية ، مجاهدا في سبيل الله ، لنشر دين الاسلام .

يا بني . اوصيك بعلماء الأمة . أدم رعايتهم . وأكثر من تبجيلهم . وانزل على مشورتهم . فانهم لا يأمرون الا بخير .

يا بني . اياك أن تفعل أمرا لا يرضي الله عز وجل ، واذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة ، فانهم سيدلونك على الخير .

واعلم يا بني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله ، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله ، وأننا لسنا طلاب جاه ولا دنيا .

● وينقل المؤرخ التركي المعاصر عبد القادر زاده أوغلو في كتابه « التاريخ العثماني المصور » ، عبارات أخرى من وصية عثمان تقول :

وصيتي الأولى لأبنائي ، ولجميع الأعزاء علي ، أن لا يتركوا الجهاد في سبيل اعلاء كلمة الله ، ونشر دين الاسلام الجليل ، ورفع راية محمد صلى الله عليه وسلم عاليا . وليكن كل وقتكم لخدمة الاسلام ، ونشر كلمة التوحيد في ربوع العالم . وانني أقول لكم : انني أدعو الله عز وجل أن يحرم من شفاعة محمد صلى الله

عليه وسلم يوم القيامة . كل واحد فيكم يبتعد عن طريق الاسلام . ويظلم الناس ، ويترك الجهاد .

* وفي وصية السلطان محمد الفاتح ، أنعم به من فاتح ، لولده بايزيد ، كما تروى معظم المصادر التركية ، تطالعنا هذه العبارات :

يا بني . ان نشر الاسلام في الأرض هو واجب الملوك على الأرض ، فاعمل على نشر دين الله حيثما استطعت .

يا بني . اجعل كلمة الدين فوق كل كلام ، واياك أن تغفل عن أي أمر من أمور الدين ، وأبعد عنك الذين لا يهتمون بأمر الدين ، واياك أن تجري وراء البدع المنكرة .

يا بني ، قرب منك العلماء ، وارفع من شأنهم ، فانهم ذخيرة الأمة في الملمات .

يا بني ، حذار أن تغرك كثرة الأموال والجنود ، واياك أن تخالف أمر الشريعة في أي شأن ، واحرص على الدين فانه سر انتصارنا .

ترى . هل هناك من دليل أنصع من هذه الأدلة على صدق انتماء العثمانيين الاسلامي ، وحرصهم على اضفاء الهوية الاسلامية على دولتهم ٠٠ !

قد يقول قائل : ان هذا مجرد كلام عاطفي صدر عن اناس يواجهون سكرات الموت ، فلا يعتد بها ٠

لهؤلاء المتشككين ، ان وُجِدوا ، أسوق دليلا آخر ، يتمثل في نصوص الواجبات التي اناطها دستور الدولة العثمانية بسلاطين الدولة ، أنقلها من كتاب الدكتور عمر عبد العزيز عمر « محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية » ٠

— هذه الواجبات هي :

**أولا** : ان يخضع السلطان لاحكام الشريعة الاسلامية خضوعا كاملا ٠

**ثانيا** : أن يُجِلّ الشريعة الاسلامية ويبجل علماءها ٠

**ثالثا** : ان يحمي مقدسات المسلمين ، وينظم شؤون الحج بعناية ٠

**رابعا** : ان يدافع عن تخوم المسلمين ضد اعدائهم ٠

ولمن أراد مزيداً من الأدلة على صدق انتماء العثمانيين والتزامهم بالاسلام ، أورد هذه الأدلة :

* يقول الاستاذ المؤرخ محمد جميل بيهم في كتابه « العرب والترك » :

لقد اقبل الترك على دين محمد صلى الله عليه وسلم افواجا ، وانقلبوا من خصوم ألداء للاسلام ، الى حماة للاسلام شديدي التعصب له .

* ومما يؤكد الهوية الاسلامية للدولة العثمانية ، أن الاتراك أطلقوا على الجندي التركي اسم «Mahmatcik» أي الجندي المحمدي ، وما برحوا حتى يومنا هذا يطلقون عليه هذا الاسم ، وذلك تيمنا باسم سيد المجاهدين محمد عليه الصلاة والسلام .

كما أن العديد من المراسيم والقوانين التي كانت تصدر عن الدولة العثمانية ، كانت تصدر باسم الدولة العلية المحمدية ، تيمنا باسم النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وتأكيداً للهوية الاسلامية للدولة .

* ويقول المؤرخ التركي أحمد رفيق في موسوعته « التاريخ العمومي الكبير » ، « بيوك تاريخ عمومي » :

لقد كان عثمان ابن أرطغرل شديد التدين ، وكان يؤمن ان نشر الاسلام وتعميمه واجب مقدس بالنسبة اليــــه .

* ويؤكد الاستاذ الدكتور عبد الكريم غرايبة في كتابه « العرب والأتراك » الهوية الاسلامية للدولة العثمانية بقوله :

لقد تعلق الناس بالسلطان الذي وحدهم ، فجعل بلادهم سوقا واحدة ، وحماهم من العدو الافرنجي ، ورفع راية الاسلام زمنا طويلا ، وطبق أحكام الشريعة .

* وقد نص القانون الذي وضعه السلطان سليمان القانوني . والذي حدد بموجبه الشروط التي ينبغي ان تتوفر في كل شخص يتولى منصب الصدارة العظمى ( رئاسة الوزراء ) ، أو منصب الوزارة ، على أن يكون ذلك الشخص مواظبا على اداء الصلاة في أوقاتها .

وقد عثرت على نص هذا القانون ، في العدد الثالث الصادر في شهر آذار من عام ١٩١٦م ، من مجلة «المشرق» التي كانت تصدر عن ادارة كلية القديس يوسف ، والتي كان يترأس تحريرها الأب لويس شيخــو اليسوعي .

* ولعل أبلغ الأدلة وأقواها حجة على صدق التزام الأتراك بالاسلام ، ما شهدت به الأعداء ، والفضل ما شهدت به الأعداء ..

فقد نقل الاستاذ المؤرخ محمد جميل بيهم في كتابه « العرب والترك » عن المؤرخ الفرنسي ده سون ، الذى عاش ربع قرن فى ربوع الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر . أن العثمانيين التزموا التزاماً صارماً بكل ما أوجبه القرآن ، وأن الدولة كانت تسترشد برأي علماء الاسلام ، لان الواجب كان يقضي بالرجوع الى رأي الشريعة الاسلامية في أي شأن من شؤون الدولة العسكرية ، أو السياسية ، أو الاقتصادية ، أو القضائية .

يقول المؤرخ الفرنسي ده سون «Dohsson» :

سواء في زمن السلم ، أو في شؤون الحرب ، وسواء لوضع قانون سياسي ، أو نظام عسكري ، وسواء القصاص من وزير أو قائد عام ، فان الوزارة كانت تلجأ الى المفتي تستشيره في الأمر ، وكثيراً ما كانت تتفاوض معه في القضية التي ستعرض عليه . وذلك لانه لم يكن يكفي الاطمئنان الى شرعية الحكم فحسب ،

بل كان الواجب الرجوع الى رؤساء الدين ( التعبير الاصح هو العلماء او الفقهاء ) في قضايا الدولة .

وينقل المؤرخان الغربيان جوثيان وفان قافار - في كتابهما « تاريخ العالم » - أن مفتي الاسلام كان مرجع السلطنة العثمانية في الامور الشرعية والمدنية على حد سواء ، وانه كان يتمتع بمرتبة تسمو على مرتبة الوزراء ، وكان ذلك يجري مراعاة للروح السائدة التي تضع الدين فوق كل اعتبار آخر .

★ ويؤكد حقيقة التزام الأتراك العثمانيين بالاسلام، المؤرخ البريطاني هيربرت آدمز جيبونز في كتابه « تأسيس الامبراطورية العثمانية » الذي الفه عام ١٧٩٤م ، والذي نشر في عام ١٩١٦ :

يقول جيبونز بلهجة تستثير الأحقاد الصليبية ضد الاسلام والأتراك معا :

ان قيام الدولة العثمانية كان بدافع التعصب الديني الذي اشتهر به الأتراك .

★ ويروي الاستاذ محمد جميل بيهم في كتابه « العرب والترك » أن التزام الأتراك العثمانيين بالاسلام كان من الصرامة بحيث أن مفتي الاسلام في زمن السلطان

سليم الثالث ١٢٢٩هـ ـ ١٨٠٧م ، أفتى بخلع السلطان من عرش السلطنة لأنه أدخل على الدولة بعض أنظمة الفرنجة المنافية للاسلام . ولم خلع السلطان سليم الثالث عن عرش السلطنة فعلا بموجب تلك الفتوى .

ـــــ ولقد كان موقف السلطان مراد بن أورخان من ابنه ساوجي قمة شامخة في صدق التزام العثمانيين بالاسلام وبأحكام الشريعة الاسلامية .

فحين تآمر ولده ساوجي مع الأمير اندرونيقوس ابن الامبراطور البيزنطي يوانيس . وسار الاثنان على رأس جيش من البيزنطيين وبعض المخدوعين من الجنود العثمانيين لمحاربة الجيش العثماني الاسلامي ، كانت نتيجة المعركة هزيمة المتآمرين . ووقوع الأمير ساوجي في الأسر . فأصر والده السلطان مراد أن يعرض أمره على علماء الشريعة وقضاتها ، فحكموا عليه بعقوبة الموت جزاء خروجه على طاعة ولي الأمر ، وجزاء موالاته للكفار ومشاركته الفعلية الى جانبهم في قتال المسلمين . وحين اشفق رجال الدولة ان يفجع السلطان مراد بولده ساوجي ، رجوه ان يعفو عنه ، ويكتفي بنفيه فما كان من السلطان مراد ، المؤمن ، الملتزم ، الا أن أصر على أن ينفذ حكم الشريعة في ولده ، وكأني به وهو يفعل ذلك كان يستشعر بصدق قول الله عز وجل :

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا اباءهم أو أبناءهم او اخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون » .

لا وكان من الطبيعي أن يستغل الحاقدون مقتل ساوجي على ذلك النحو . ليفتئوا حقدهم ضد مراد ، فيتهمونه بالوحشية . وتحجر عاطفة الأبوة في قلبه ، وما دروا أن الالتزام بالاسلام يجعل وشيجة العقيدة فوق كل وشيجة .

* ولعل هذه الأبيات الشعرية التي وردت في كتاب المؤرخ البريطاني باول ونك منقولة عن كتاب « اسكندر نامه » الذي ألفه الأحمدي في عام ١٤٠٠م مؤرخا فيه لحياة الأتراك . تشكل دليلا آخر على صدق التزام الأتراك العثمانيين بالاسلام .

تقول أبيات القصيدة التي عنوانها :

سلطاننا . وكيف نريده أن يكون . . :

ان سلطاننا هو خادم دين الله .

انه الرجل الذى يسعى لاخراج الناس من الشرك .

وينقلهم الى رحمة الاسلام .

ان سلطاننا هو سيف الله .

انه حامى المؤمنين ، وملاذ المسلمين .

وحين يقتل سلطاننا فى سبيل الله .

فلا تظنوا أنه مات .

لان الشهيد لا يموت .

بل ينتقل الى جوار الله .

ليعيش فى جنات النعيم .

* وكان عثمان بن ارطغرل مؤسس الدولة العثمانية حريصا على الالتزام باحكام الشريعة الاسلامية في جميع حروبه التى خاضها . وفى هذا الصدد يروي المؤرخ أحمد رفيق في الجزء السادس من موسوعته ، بيوك تاريخ عمومى ، ( التاريخ العمومي الكبير ) . ان عثمان ارسل الى جميع أمراء الروم البيزنطيين الذين يحيطون به . يخيرهم بين ثلاثة امور . اما الاسلام ، أو الجزية . او فالحرب .

* ولقد بلغ من شدة حرص العثمانيين على التزام آداب الاسلام في الوفاء بالعهد ، أنهم ظلوا طوال عدة قرون ، كما يروي المؤرخ اسماعيل حامي دانشمند ، في كتابه « موسوعة التاريخ العثماني » ، يدخلون قلعة اولوباد بواسطة القوارب ، على الرغم من وجود جسر يوصل اليها ، وذلك لأن أمير القلعة البيزنطي كان قد اشترط على عثمان بن ارطغرل حين استسلم للجيش العثماني ، أن لا يمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم الى داخل القلعة .

وأجد من واجبي ، بعد أن قدمت الدليل الناصع على صدق التزام العثمانيين بالاسلام ، أن ألفت الانتباه الى ان مقتضيات الامانة العلمية ، كما أن مقتضيات الأخوة الاسلامية ، توجب علينا ان نبرز باعتزاز وفخر ، وحيثما ، وأينما امكننا ذلك ، الهوية الاسلامية الملتزمة للعثمانيين الاتراك ، وأن ننفي من أفكارنا وعقولنا أية معلومات خاطئة تزعم ان العثمانيين كانوا مجرد قطاع طرق ، ومغامرين ، وطلاب شهرة وجاه ، وأن نستبدل هذه المغالطات بالحقيقة الناصعة التي تؤكد أن عثمان ابن ارطغرل قد اسس دولة تعتز بالاسلام ، وتعتز بها

الاسلام ، ويلوذ اليها المسلمون . وهذا ما يؤكده المؤرخ التركي أحمد رفيق في موسوعته المطبوعة باللغة التركية بأحرفها العربية « بيوك تاريخ عمومي » ، أي « التاريخ العام الكبير » ، حيث يقول ما ترجمته :

« كان عثمان متدينا للغاية ، وكان يعلم أن نشر الاسلام وتعميمه واجب مقدس ، وكان مالكا لفكر سياسي واسع ومتين ، ولم يؤسس عثمان دولته حبا في السلطنة ، وانما حبا في نشر الاسلام » .

* ويعزز هذا الرأي ما أورده المؤرخ التركي قادر مصر اوغلو في كتابه « مأساة بني عثمان » المطبوع عام ١٩٧٩م .

يقول مصر أوغلو :

لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن ايمانا عميقا بأن وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله ، لاعلاء كلمة الله ، وقد كان مندفعا بكل حواسه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف .

* ومما يؤكد الهوية الاسلامية للدولة العثمانية ، أن أول عملة عثمانية سكت في زمن اورخان بن عثمان

ابن ارطغرل ، كانت تحمل على أحد وجهيها لفظ الشهادة « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » .

وحين شكل السلطان أورخان في عام ٧٢٩هـ - ١٣٢٨م ، اول جيش نظامي عثماني ، توجه بهذا الجيش الى حيث يقيم العالم المؤمن الحاج بكتاش ، وطلب منه ان يدعو لهذا الجيش بالنصر ، فتلقاهم العالم المؤمن خير لقاء ، ووضع يده على رأس أحد الجنود ، ودعا لهم الله أن يبيض وجوههم ، وان يجعل سيوفهم حادة قاطعة ، وان ينصرهم في كل معركة يخوضونها في سبيل الاسلام .

واتخذ اورخان لجيشه الجديد راية من قماش أحمر في وسطها هلال ، وتحت الهلال صورة لسيف أطلقوا عليه اسم « ذو الفقار » تيمنا بسيف الخليفة الراشد علي بن ابي طالب رضي الله عنه .

* وينبغي ان اشير الى ان الدكتور عمر عبد العزيز عمر يؤكد في كتابه « محاضرات في تاريخ الشعوب

الاسلامية ، الذي يدرس في عدد من الجامعات العربية ، ان التحركات الحربية التي قام بها العثمانيون الأتراك في المراحل الاولى من تأسيس دولتهم كانت نتيجة عدة عوامل ، أهمها ، وفي مقدمتها ، الروح الدينية الوثابة التي كان يتمتع بها العثمانيون .

# العثمانيون الأتراك

## صدقوا الله في جهادهم في سبيله

تجلى صدق جهاد العثمانيين في سبيل الله في وقت سابق لتأسيس دولتهم ، حين كان أرطغرل بن سليمان والد مؤسس الدولة عثمان بن ارطغرل يضرب في الأرض فارا بعشيرته التي لم يتجاوز تعدادها اربعمائة عائلة ، من ويلات الهجمة المغولية بقيادة جنكيز خان ، فاذا به يسمع عن بعد جلبة وضوضاء ، فلما اقترب منها فوجيء بجيشين يقتتلان ، جيش مسلم ، وجيش بيزنطي ، وكان الجيش الاسلامي على وشك الاندحار المؤكد ، فما كان من ارطغرل الا أن اندفع بكل حماس لنجدة اخوانه المسلمين ، من غير ان يضيع لحظة من الوقت في التعرف على الجهة التي ينتمي اليها الجيش الاسلامي ، ومن غير ان يضيع لحظة من الوقت في التفكير بعواقب الامر ، ومن غير أن ينتبه قلة عدد محاربي عشيرته ، وقواهم المنهكة .

لقد الدفع اندفاع المسلم المخلص لنجدة اخوانه المسلمين ، رغم كل ما يحمله ذلك الانحياز لجيش يكاد يكون مهزوما ، من مخاطرة غير مضمونة العاقبة . لأن شيئا فوق كل الاعتبارات ، شيئا تتضاءل أمامه المصالح الشخصية ، وتتلاشى في مواجهته طبيعة النفس البشرية التي تنشد فطرتها السلامة والبعد عن المخاطرة ، هو الذي دفعه للانحياز الى اخوانه المسلمين .

ذلكم هو الاسلام وحب الجهاد في سبيل الله .

ويؤكد هذه الحقيقة الاستاذ الدكتور عبد الكريم غرايبة في كتابه « العرب والاتراك » حيث يقول :

اصبحت امارة عثمان المنفس الوحيد للحماس الديني في الاسلام ، فجاءها كل راغب في الجهاد ، واجتذبت اليها اعدادا من المتحمسين لنصرة الدين .

كما يؤكد هذه الحقيقة المستشرق الالماني كارل بروكلمان في الجزء الثالث من كتابه « تاريخ الشعوب الاسلامية » ، حيث يقول : ان المئات ممن كان يطلق عليهم اسم «المندفعون» (المجاهدون) ، كانوا يفدون الى التخوم المواجهة للبيزنطيين ، للانضمام الى عثمان حبا في الجهاد في سبيل الله .

* ويعبر السلطان المجاهد محمد الفاتح ، انعم به من فاتح ، أروع تعبير عن صدق اندفاع العثمانيين في دروب الجهاد في سبيل الله عز وجل ، في هذا الحوار الذي جرى اثناء حصاره لمدينة طرابزون في عام ٨٦٥هـ ـ ١٤٦٢م ، بينه وبين سارة خاتون ، والدة عدوه اللدود الأمير حسن الطويل الذي تحالف مع بابا روما ضد العثمانيين .

قالت العجوز ، كما يروي المؤرخ التركي عاشق باشا زاده في كتابه « تاريخ عاشق باشا زاده » :

يا بني ، لماذا تلقي بنفسك وبجيشك الى المخاطر من أجل فتح مدينة (تقصد طرابزون) تستطيع أن تبني مثلة مدينة أجمل منها وأكبر .. ؟

فأجابها السلطان المؤمن الملتزم :

يا أماه اننا لا نلقي بأنفسنا الى المخاطر من أجل مدينة ، وانما في سبيل الله عز وجل ، حتى اذا لقيناه يوم الحساب ، قدمنا اليه فخورين ، لا خجلين ، وبأيدينا سيوفنا التي حاربنا بها في سبيله .

يا أماه ، ان هذه السيوف التي نحملها ليست للزينة والتباهي ، وانما هي لنقاتل بها في سبيل الله .

يا أماه ، ان هذا العناء الذي نلاقيه كله في سبيل الله . وهل تظنين أننا نكون أهلاً لنسمى مجاهدين في سبيل الله اذا لم نتحمل هذا العناء .

* ويربط الاستاذ محمد جميل بيهم في كتابه « العرب والترك » ، بين شجاعة الجندي التركي ، وبين صدق حبه للجهاد في سبيل الله فيقول :

وما الشجاعة التي اشتهر بها الجندي التركي ، الا نتيجة لتعصب الشعب التركي للاسلام ، واستناداً الى انه كان يؤمن ايماناً صادقاً بأن الذين يقتلون في سبيل الله ، هم أحياء عند ربهم يرزقون .

* وحين نقرأ تاريخ بني عثمان بعيون اسلامية لا تنطلي عليها الافتراءات التي أطلقها الحاقدون ليحجبوا المواقف التي سجلها العثمانيون في ميادين الجهاد في سبيل الله ، تطالعنا صور رائعة تجسد أروع تجسيد معجزة الاسلام في صنع البطولات والابطال .

* تطالعنا صورة السلطان مراد بن أورخان بن عثمان ، وهو يناجي ربه في الليلة التي سبقت اندلاع معركة «قوصوه» الحاسمة التي أعز الله بها جنده ، وهزم جيوش الحلف الصليبي بقيادة ملك الصرب لازار (٧٩١هـ ــ ١٣٨٩م) . ففي تلك الليلة التي اشتد ظلامها ، وثار غبارها ، وبلغت القلوب فيها الحناجر ، كان السلطان المجاهد مراد بن أورخان يرفع يديه الى السماء يناجي ربه قائلا :

الهي ، ومولاي ، تقبل دعائي وتضرعي ، وانزل علينا برحمتك غيثا يطفيء من حولنا غبار العواصف ، واغمرنا بضياء يبدد من حولنا الظلمات ، حتى نتمكن من ابصار مواقع عدونا فنقاتله في سبيل اعزاز دينك العزيـــز .

الهي ، ومولاي ، ان الملك والقوة لك ، تمنحها لمن تشاء من عبادك ، وأنا عبدك العاجز الفقير ، تعلم سري وجهري ، وأقسم بعزتك وجلالك انني لا أبتغي من جهادي حطام هذه الدنيا الفانية ، ولكنني أبتغي رضاك ولا شيء غير رضاك .

الهي ، ومولاي ، أسألك بجاه وجهك الكريم ، أن تجعلني فداء للمسلمين جميعاً ، ولا تجعلني سبباً في هلاك أحد من المسلمين في سبيل غير سبيلك القويم .

الهي ، ومولاي ، ان كان في استشهادي نجاة لجند المسلمين فلا تحرمني الشهادة في سبيلك ، لأنعم بجوارك ، ونعم الجوار جوارك .

الهي ، ومولاي ، لقد شرفتني بأن هديتني الى طريق الجهاد في سبيلك ، فزدني شرفاً بالموت في سبيلك .

وقد روى المؤرخ التركي خوجا سعد الدين في كتابه « تاريخ التواريخ » ، أن السلطان مراد أمضى الليل بطوله وهو يدعو بهذا الدعاء .

ولقد صدق مراد ربه ، فصدقه وعده ، فنصر جنده ، واختاره شهيداً في سبيله في تلك المعركة .

* وتطالعنا صورة السلطان المجاهد محمد الفاتح ، وقد امتطى صهوة حصانه ، يحف به العلماء المجاهدون آق شمس الدين ، ومولا خسروي ، ومولا قوراني ، ثم يتقدم بحصانه نحو أسوار القسطنطينية ، وقد ارتفع صوته بعنفوان :

يا ابنائي ، ها أنذا مستعد للموت في سبيل الله ، فمن رغب في الشهادة فليلحق بي »

* وطالعنا صورة الجندي المجاهد البطل حسن اولو باتلي ، وهو يخترق على رأس ثلاثين من جند المسلمين ثغرة في سور القسطنطينية ، فتنهمر عليه وعليهم قدور الزيت المغلي ، وتتلقفه مئات السيوف والرماح ، فلا يأبه لكل ذلك العناء ، ويصر على فتح باب قريب من الثغرة ، ليندفع منه المسلمون الى داخل القسطنطينية بينما ارواح أولو باتلي ، واخوانه المجاهدين تصعد الى رحاب العلي القدير .

* ونستطيع ان نلمس صدق حماس العثمانيين في ميادين الجهاد في سبيل الله من خلال مطالعتنا للرسالة التي ارسلها السلطان محمد الفاتح الى سلطان دولة المماليك الشراكسة في مصر السلطان اينال شاه ، ففيها نطالع هذه العبارات :

ان من احسن سنن اسلافنا ، انهم مجاهدون في سبيل الله ، لا يخافون لومة لائم ، ونحن على هذه السنة قائمون ، وعلى تلك الامنية دائمون ، متمثلين بقوله تعالى

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله » . ومتمسكين بقوله عليه السلام : « من اغبرّت قدماه في سبيل الله حرّمه الله على النار » ولهذا فقد صممنا هذا العام ، معتصمين بحبل الله ، ذي الجلال والاكرام ، ومستمسكين بفضل الملك العلام ، الى اداء فرض الغزاء (من الغزو) الذي فرضه علينا الاسلام ، مؤتمرين بأمره تعالى « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » ، وجهزنا عساكر الغزاة المجاهدين من البر والبحر ، لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً .

# العثمانيون الأتراك

# دفعوا ثمنا باهظا بسبب موقفهم الصلب في وجه المطامع الصهيونية في فلسطين المسلمة

سجل العثمانيون الأتراك ، حتى وهم في أحرج الظروف وأصعبها ، موقفا شامخا ، دفاعا عن فلسطين المسلمة ، ينبغي أن يسجل للعثمانيين المسلمين بماء الذهب ، بل ينبغي أن يكون أنشودة فخار واعتزاز على لسان كل عربي بشكل عام ، وفلسطيني بشكل خاص ، ذلك الموقف الذي تمثل في الموقف الصلب الذي وقفه العثمانيون المسلمون تجاه قضية فلسطين ، ذلكم الموقف الذي وقفه السلطان المفترى عليه عبد الحميد الثاني .

ففي عام ۱۹۰۱م قام تيودور هيرتزل زعيم الحركة الصهيونية العالمية ، يرافقه ايمانويل قره صو زعيم الأقلية اليهودية التركية ، والحاخام ليفي موشيه حاخام اليهود فيها ، بزيارة كانت الأولى من نوعها للسلطان عبد الحميد ، لاقناعه بالسماح اليهود بالهجرة الى

فلسطين . فما كان من السلطان عبد الحميد الا ان رفض رفضا قاطعا مجرد مناقشة الوفد اليهودي في ذلك الأمر .

لكن اليهود لم يقطعوا الامل . وزين لهم شيطانهم ان الضائقة المالية التي كانت تمر بها الدولة العثمانية قد تكون المدخل الذي يستطيعون من خلاله الوصول الى هدفهم في انتزاع موافقة السلطان عبد الحميد على السماح لليهود بالهجرة الى فلسطين . فعادوا يلتمسون السماح لوفدهم بمقابلة السلطان عبد الحميد . فلما تمت المقابلة عرض هيرتزل على الخليفة رشوة مالية ضخمة تحت ستار تقديم العون للدولة العثمانية ، مقابل السماح لليهود بالهجرة الى فلسطين ، وما كاد هيرتزل ينهي كلامه، حتى كان السلطان عبد الحميد يقذف في وجه هيرتزل ورفيقيه كلمات غاضبة كأنما هي حمم بركان ثائر .

قال السلطان لهيرتزل :

لو كنت أعلم انك جئت اليوم تطلب مني ما رفضت اجابتك اليه من قبل ، لما سمحت لك بالدخول علي ،

واعلم يا هيرتزل أن فلسطين جزء من أرض الاسلام ، وأرض الاسلام لا تباع بالذهب والدراهم ، ولقد حصلنا على كل شبر منها ببذل دماء أجدادنا ، ولن نفرط بشبر منها قبل أن نبذل كل دمائنا دفاعاً عنها .

وخرج تيودور هيرتزل ورفيقاه يجرون أذيال الخيبة ترتسم على وجوههم ، ويجترون غصص الحقد تأكل قلوبهم ، واقبلوا على قومهم وصنائعهم يستنفرونهم ويستثيرون أحقادهم ، للانتقام من السلطان المسلم الذي استعصى على اغراءاتهم .

وأفرغ تيودور هيرتزل كل ما في قلبه من حقد عبد السلطان عبد الحميد ، وضد الدولة العثمانية في تقرير سري رفعه الى لجنة الأعمال الصهيونية ، عن نتيجة مقابلته للسلطان عبد الحميد في عام ١٩٠٢م ؛ وقد نشر هذا التقرير بعد عشرين عاماً في صحيفة فلسطين الصادرة في القدس في ١٩٢٦/٨/٢٤ .

واقتطف هذه العبارات بحرفيتها من تقرير هيرتزل :

« أقرر على ضوء حديثي مع السلطان عبد الحميد الثاني أنه لا يمكن الاستفادة من تركيا الا اذا تغيرت حالتها السياسية ، اما عن طريق الزج بها في حروب تنهزم فيها ، أو عن طريق الزج بها في مشكلات دولية ، أو بالطريقين معا في آن واحد » .

وكانت دولة الخلافة العثمانية في تلك الفترة تمر بمرحلة ضعف أغرت الحاقدين من صليبيين ويهود باحياء حلمهم القديم بالقضاء على الاسلام في تركيا . ولقد لعبت الدعاية اليهودية الماكرة عبر الصحافة التي كانـوا يسيطرون عليها في أوربا دورا حاقدا ومؤثرا في تهيئة الأجواء لتنفيذ مخطط ماكر رهيب للقضاء على الخلافة الاسلامية باعتبارها الرمز الذي يلتقي حوله المسلمون جميعا .

وانحصر دور الدعاية الاعلامية اليهودية في عدة مجالات نفصلها كما يلي :

**أولا :** تشويه صورة الأتراك المسلمين باظهارهم بمظهر المتوحشين سفاكي الدماء ، المنغمسين في الفساد والانحلال ، وذلك بقصد اذكاء الحقد الصليبي الأوربي ضد الأتراك المسلمين .

ثانيا : تحريك غرائز الطمع الاستعماري الصليبي واغراء الأوروبيين بسهولة الانقضاض على الدولة العثمانية . واذكاء الأحقاد الصليبية ضد الاسلام الذي كان العثمانيون يرفعون رايته فقامت الصحافة الصهيونية بنبش موضوع فتنة عام ١٨٦٠م الشهيرة التي حدثت بين الدروز والنصارى في سورية ولبنان ، وحرصت الدعاية الاعلامية اليهودية على القاء تبعة مسؤولية المذابح التي تعرض لها النصارى آنذاك على الدولة العثمانية . ونشطت وسائل الدعاية اليهودية بخبث ومكر المناداة بضرورة تدخل الدول الاوروبية النصرانية بحجة حماية الرعايا النصارى في سوريا ولبنان من مذابح أخرى قد يقوم بها الأتراك العثمانيون وقد نجحت الصهيونية في ذلك أيما نجاح . فقد رضخت دولة الخلافة العثمانية لطلبات الدول النصرانية الاوروبية ، بمنحها امتيازات في ديار العرب والاسلام تحت ستار تأمين الحماية للنصارى .

وقامت الصحافة الصهيونية كذلك بنبش موضوع الفتنة التي اثارها البلغاريون عندما قاموا بالثورة ضد

الدولة العثمانية وارتكبوا أثناء ثورتهم مذابح بشعة ضد الأتراك المسلمين . فاضطرت الدولة العثمانية الى اخماد الثورة بالقوة . ولقد استغلت الدعاية الاعلامية اليهودية هذا الموقف لتشويه الحقائق واظهار الأتراك المسلمين بمظهر المعتدين الذيـن يحبون سفك دمـاء النصارى بدون رحمة . وظلت الدعاية الاعلامية اليهودية تبث الحقد في قلوب النصارى في جميع أوربا وتدعوهم الى الثأر لاخوانهم النصارى البلغار . وكان لتلك الحملة الدعائية اليهودية أكبر الأثر في اذكاء الحقد الصليبي في دول أوربا كلها ضد الاسلام والمسلمين مما سيظهر أثره فيما بعد عندما اندلع الحرب العالمية الأولى .

**ثالثاً** : ولعل أخطر دور لعبته الدعاية الاعلامية اليهودية من خلال الصحف التي كانت تسيطر عليها في أوربا وفي تركيا نفسها ، ومن خلال الجمعيات الماسونية التي فرختها الصهيونية . هو ذلك النشاط الذي لعب دورا كبيرا في تنفيذ مؤامرة الردة الكافرة في تركيا ، وأدى الى ابطال مفعول الخلافة الاسلامية ، والقضاء على الكيان الاسلامي لتركيا .

وقد تجلى هذا النشاط الصهيوني في المجالات التاليـــة :

**أولا :** تشويه سمعة رجالات الدولة العثمانية وتصويرهم في صورة الحكام المستبدين المستهترين بمصالح شعوبهم المنغمسين في الفساد والانحلال ، ولسنا ننكر ان بعض رجالات الدولة العثمانية وخاصة في أواخر أيامها كانوا فاسدين ، الا ان اليهود عمموا حملتهم لتشمل جميع رجالات الدولة العثمانية الذين لم تستطع أحابيل اليهود من التأثير عليهم . ولقد كان السلطان عبد الحميد أحد أبرز رجالات الدولة العثمانية الذين نالهم الأذى الشديد من الدعاية اليهودية التي شوهت صورتـه وسمعته واطلقت عليه ظلمـا وبهتانـا لقب «السلطان الأحمر» ، لترسيخ أكذوبتها الكبرى التي لفقتها ضده حين لفقت عنه قصصا كاذبة عن عمليات اغتيال مزعومة أمر بها ضد رجالات المعارضة . ولقد كان هدف هذه الحملة الاعلامية الشرسة ضد رجالات الدولة العثمانية هو التمهيد وتهيئة الرأي العام التركي لتقبل فكرة التخلص من رجالات الدولة العثمانية ليسهل

على اليهود وحلفائهم النصارى بعدئذ الانتقال الى الخطوة التالية وهي القضاء على كيان الدولة العثمانية ذاته .

**ثانيا :** تشويه صورة دولة الخلافة الاسلامية كدولة . وذلك باطلاق وصف «الرجل المريض» عليها . وهو وصف من ابتكار اليهود . وليس صعبا أن تدرك ان هدف وسائل الاعلام اليهودية آنذاك من تصوير الدولة العثمانية بصورة الرجل المريض انما هو لتمهيد وتهيئة الرأي العام التركي والعالمي لتقبل فكرة استبدال هذا الكيان المريض الذي هو دولة الخلافة بكيان قوي متطور وعصري يكون صورة طبق الاصل عن اية دولة أوروبية .

**ثالثا :** بينما كانت الدعاية الاعلامية اليهودية تشوه صورة الدولة العثمانية ، كانت في الوقت نفسه تروج لفكرة الدولة التركية العلمانية الحديثة المرتبطة باوروبا وذلك كبديل للدولة العثمانية . ولكنها لم تكن تجرؤ على الجهر بذلك بصراحة ، وانما كانت تدس هذه الفكرة

دينا من خلال ما تضفيه من حسنات على النظم الحياتية الأوروبية وتصويرها بأنها بلغت قمة الكمال .

وحين كانت الدعاية اليهودية الاعلامية تشوه صورة رجالات الدولة العثمانية ، كانت في الوقت نفسه تضفي هالات زائفة من صفات البطولة والرجولة والاستقامة على الشخصيات التركية التي كانت الصهيونية وربيبتها الماسونية ، بالتحالف مع الصليبية ، تعدها لاستلام مقاليد الأمور في تركيا ، في حالة نجاح الخطة الخبيثة للقضاء على كيان تركيا الاسلامي .

ومن تلك الشخصيات مدحت باشا ، اليهودي الذي ادعى الاسلام نفاقا والذي صورته الدعاية الاعلامية اليهودية بصورة المكافح من أجل الشعب التركي ، واطلقت عليه أوصافا براقة مثل « أبو الأحرار » و « أبو الدستور » ، وحين نفاه السلطان عبد الحميد الى الطائف بعد أن انفضحت علاقته بمخططات الصهيونية والماسونية المتآمرة ضد دولة الخلافة ، أقامت الدعاية الاعلامية اليهودية الدنيا ولم تقعدها احتجاجا ضد نفيه ، واستغلت الصهيونية هذه الحادثة لتكثيف هجمتها ضد السلطان

عبد الحميد باعتباره رمزا للدولة العثمانية وعنوانا لوحدة المسلمين ٠

على ان النجاح الكبير الذي حققته الدعاية الاعلامية اليهودية كان من نصيب مصطفى كمال أتاتورك الذى كان اليد الآثمة التي حقق الكفر بواسطتها حلمه في القضاء على الكيان الاسلامي لتركيا وابطال مفعول الخلافة الاسلامية . فقد سخرت الدعاية الاعلامية اليهودية كل مكرها ، وخبثها ، وكذبها ، لتصوير أتاتورك بصورة المنقذ المنتظر لتركيا ، وتركزت حملتها الدعائية لصالحة أتاتورك أثناء فترة الحرب ضد الحلفاء في أواخر الحرب العالمية الأولى ، وانتهزت الدعاية اليهودية ما أصاب الاتراك من هزيمة لترفع عقيرتها بالمناداة بأن الوطن يحتاج الى زعامة جديدة قادرة على انقاذه ، وكانت طبعا تضرب بذلك عصفورين بحجر واحد ، للغمز من قناة رجالات الدولة العثمانية من جهة ، وتقدم كمال أتاتورك على انه هو المنقذ المنتظر من جهة أخرى ، ولقد تم حبك الأمر بصورة تسمح باظهار أتاتورك بأنه فعلاً المنقذ . ذلك أن الحلفاء تظاهروا في أكثر من موقعة بالتراجع والانهزام أمام أتاتورك ، وقد انكشف هذا

السر بعد ثقة . فكانوا بذلك يفتحون المجال أمام الدعاية اليهودية لاضفاء صفات البطولة والاقدام على أتاتورك .

ولقد نجحت مع الأسف الشديد حملة الدعاية اليهودية في اقناع الاتراك ببطولة أتاتورك وزعامته ، وساعدها في ذلك ان أتاتورك في بداية الأمر تستر بالاسلام وطفق يخطب خطبة الجمعة في مساجد المدن والقرى . ويأخذ الصور الفوتوغرافية بين العلماء . وكانت الصحافة اليهودية تبرز هذه النشاطات لتقنع الاتراك بتقبل زعامة أتاتورك كبديل للخليفة ورجالاته الذين كانت تصورهم بصورة مشوهة كمستبدين وفاسدين ومنحلين اخلاقيا .

**رابعا :** لم يقتصر الدور الذي لعبته الدعاية الاعلامية اليهودية في مؤامرة القضاء على الكيان الاسلامي لتركيا على تشويه صورة الدولة ورجالاتها ، وابراز قيادات بديلة من شخصيات يهودية الأصل أو عميلة لليهود ، ولكن هذا الدور توسع ليغطي معظم اجزاء الدولة العثمانية . وكان أبرز ميدان له وطننا العربي حيث أخذت الدعاية الاعلامية اليهودية على عاتقها الترويج للأفكار القومية التي اوعزت الصليبية لبعض نصارى

العرب بالمناداة بها . ومن عجب أن تفتح الدعاية اليهودية الاعلامية من خلال صحفها ومحافلها الماسونية المجال لسدنة القومية العربية للترويج لهذه الفكرة لتنطلي على كثير من العرب الذين انخدعوا بها ، وظنّوا أنهم سيجدون فيها خلاصاً لهم من ظلم كانوا يرزحون تحته بسبب فساد ادارة الدولة . كان اليهود أنفسهم سببه من خلال عملائهم رجالات جمعية الاتحاد والترقي التي سيطرت على مقاليد الأمور في الدولة العثمانية من عام ١٩٠٨ وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى .

وهكذا نجد أن الدعاية الاعلامية اليهودية حققت نجاحاً كبيراً حين نجحت في الترويج لفكرة القومية العربية التي أصبحت بعد قليل أسفيناً مزقت به اليهودية والصليبية وحدة الجسم الاسلامي مما مهد السبيل أمام أعداء الاسلام لتنفيذ مؤامرتهم لالغاء الخلافة الاسلامية .

**خامساً :** وعندما ضرب أتاتورك لعنه الله ضربته القاصمة فأبطل مفعول الخلافة الاسلامية ، وألغى الكيان الاسلامي لتركيا . وأعلنها جمهورية علمانية لا دينية ،

كان للاعلام اليهودي دور وأي دور في الترويج لتلك الردة الكافرة ومبادئها . مثلما كان له دور وأي دور في تشجيع أتاتورك على البطش بأية معارضة شعبية ، وكانت تزين له أن ما يقوم به من مذابح وحشية ضد المسلمين ليست سوى معارك بطولية . كما أنها كانت منبرا لكل دعوات التشبه بالغرب الصليبي ، والمناداة بالحرية الفاجرة للمرأة التركية ، والترويج لفنون الانحلال الخلقي ، معتبرة أن شرب الخمر والمقامرة والزنا ليست الا مظاهر للتمدن والتحضر .

* * *

تلك هي بعض ملامح الدور الخبيث الذي لعبته الدعاية الاعلامية اليهودية بشكل خاص والصليبية بشكل عام في التهيئة لتنفيذ مؤامرة الردة الكافرة ضد الخلافة الاسلامية وضد الكيان الاسلامي لتركيا والتي آتت أكلها الخبيث في عام ١٩٢٤ ميلادية ، مكرسة أفدح نكبة تصيب أمة الاسلام في العصور المتأخرة ، وكان من نتائجها تفتيت وحدة المسلمين ، وابطال مفعول الخلافة الاسلامية التي كانت الدولة العثمانية رمزا لها.

ولعل من أفدح نتائجها أيضا أن الدولة البلشفية الشيوعية في روسيا خلا لها الميدان في الجمهوريات الاسلامية الاسيوية فجاست خلالها تقتيلا واضطهادا وقضاء على كيانها الاسلامي . مكملة بذلك ما بدأه قياصرة روسيا الصليبيون . وسجل التاريخ آنذاك انهيار العديد من الجمهوريات الاسلامية لتصبح مجرد ولايات تابعة للاستعمار البلشفي الشيوعي الجديد .

على ان اخطار النتائج التي أفرزتها مؤامرة الردة التي اطاحت بالكيان السياسي للدولة العثمانية كانت في ازاحة عقبة كؤود كانت تقف بشموخ في وجه المخطط الصهيوني لاغتصاب فلسطين المسلمة . وبذلك تحقق حلم هرتزل . ووجدت الصهيونية الفرصة المواتية لتصعيد نشاطها في التهيئة لنكبة ضياع فلسطين .

ولقد كان من سوء حظ فلسطين . واهل فلسطين . وقضية فلسطين . ان ينجح اليهود في تحقيق حلم هرتزل . بالقضاء على الدولة العثمانية المسلمة التي كانت تقف سدا منيعا في وجه المخططات الصهيونية للاجهاز على فلسطين . والتي كانت شوكة في حلق كل يهودي .

فان من حق السلطان عبد الحميد ، ومن حق العثمانيين الأتراك ، على كل عربي وفلسطيني ، ان يسجل لهم هذا الموقف الشامخ دفاعاً عن فلسطين ، وان يراجع كل عربي ومسلم ، المعلومات الخاطئة التي جهدت القوى الحاقدة في تلفيقها ضد السلطان عبد الحميد وضد العثمانيين الأتراك ، فما كان السلطان عبد الحميد طاغية ، وما كان ظالماً ، ولا مستبداً ، ولم يتمرغ في اوحال الملذات ، ولا تلطخت يداه بدماء الأبرياء ، كما تصوره احقاد الحاقدين ، مما لا تزال أجيالنا حتى يومنا هذا تتلقاه مع الأسف الشديد على مقاعد الدراسة في اكثر انحاء وطننا العربي .

ولئن كان الأسى يشتد ويتعاظم في النفس المسلمة ، وهي ترى الكثير من الألسن والأيدي المسلمة مستمرة في ترديد الافتراءات الظالمة التي ألصقت بالسلطان عبد الحميد ، فان من مقتضيات الأمانة العلمية ان أشير الى ان بعض الأقلام أنصفت السلطان عبد الحميد حتى وهي تكيل له الاتهامات الباطلة ، كتلك الشهادة التي سجلها

المحامي سليم صويص في كتابه « أتاتورك منقذ تركيا ، وباني نهضتها الحديثة » وهو كتاب كرس أصلا لتمجيد أتاتورك * يقول الأستاذ صويص وهو عربي نصراني أردني . وهو يعقد مقارنة بين السلطان عبد الحميد ، ورجالات جمعية الاتحاد والترقي : « وهكذا عادت جمعية الاتحاد والترقي الى الحكم ثانية بشكيمة أقوى ، وبسيطرة أكبر على مقاليد الأمور ، فعزلت السلطان عبد الحميد وعينت أخاه محمد رشاد مكانه . والغريب أن يصبح تعليق المشانق في عهد حكم جمعية الاتحاد والترقي أمرا سائغا وشائعا ، في حين أن السلطان عبد الحميد ، بكل ما عرف عنه من قسوة وبطش كان يتورع عن شنق المسلم * ويؤثر نفيه من البلاد على اعدامه » *

# العثمانيون الأتراك

## كان انتماؤهم الاسلامي فوق أي انتماء عرقي ، أو قومي ، أو عنصري

شهدت العقود الاولى للدولة العثمانية دخول أعداد كبيرة من البيزنطيين والارناؤوط والأرمن في الاسلام . ولقد حرص العثمانيون على فتح قلوبهم على وسعها لهؤلاء المسلمين ، ومنحوا المجال أمامهم لمشاركتهم أعباء الجهاد وادارة الدولة بدون أية حدود ، ولم يكن لانتماءاتهم العرقية أو القومية السابقة اي تأثير يمنع من ارتقائهم في مناصب الدولة العسكرية والمدنية . واذكر من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر ، الامير خوسيه ميخائيل الذي أسلم في زمن عثمان ابن ارطغرل واصبح من قادة الدولة المرموقين ، ثم تبعه أبناؤه وأحفاده على نفس الطريق ، واذكر القائد البيزنطي افرينوس حاكم مدينة بورصة الذي عهد اليه السلطان أورخان بقيادة أحد جيوشه ، ثم خلفه ابنه علي بن افرينوس الذي أسند اليه السلطان الفاتح قيادة أحد جيوشه .

واذكر من هؤلاء أيضا الأمير أحمد ابن ملك البوسنه استيفان . ومنهم أيضا محمود باشا الذي وصل الى منصب الصدر الأعظم في زمن السلطان الفاتح ، والذي بلغ من شدة تدينه وحسن اسلامه أن الناس كانوا يلقبونه بالولي .

ولعل في هذه الاحصائية التي سأوردها الآن كما اوردها اسماعيل حامي دنشمند في كتابه « موسوعة التاريخ العثماني » ، الدليل الذي لا حاجة بعده لأي دليل على صدق العثمانيين في رفضهم الوقوع في متاهات العصبية العرقية او القومية ، فقد بلغ عدد الذين تولوا منصب الصدر الأعظم ، أي رئاسة الوزارة ، مئتين واثنين وتسعين شخصا . وتوزعوا حسب انتماءاتهم القومية على النحو التالي :

من أصل تركي ١٣٢ ، ومن أصل أرناؤوطي ( سكان البانيا ) ٤٩ ، ومن أصل بيزنطي ٢٣ ، ومن أصل سلافي ٦ ، ومن أصل يوغسلافي (بوشناق) ١٣ ، ومن أصل شركسي ١٤ ، ومن أصل شيشاني ١ ، ومن أصل عربي ٤ ، ومن أصل ارمني ٣ ، ومن أصل روسي ١ ، ومن أصل يهودي ١ . وينتمي البقية الى قوميات مجهولة غير التركية .

وكان أول وزير أعظم من أصل غير تركي قد جرى تعيينه في عام ٨٥٧هـ ــ ١٤٥٣م ، حين عين السلطان محمد الفاتح محمود باشا البيزنطي وزيرا أعظما ، أي رئيسا للوزراء . وكان محمود باشا من النصارى الذين حسن اسلامهم ، بل لقد بلغ من شدة تدينه وتقواه أن الناس كانوا يطلقون عليه لقب «الولي» .

واستمر محمود باشا في تحمل مسؤولية رئاسة الوزراء أربعة عشر عاما متتالية ، الى أن نجح محمد باشا ، البيزنطي الأصل ، في الايقاع بين السلطان الفاتح وبين محمود باشا في عام ٨٧١هـ ــ ١٤٦٦م ، فعزله وعين محمد باشا مكانه . لكن السلطان لم يلبث أن اكتشف حقيقة هذا المنافق فعزله في عام ٨٧٤هـ ــ ١٤٦٩م ، وأعاد لمحمود باشا اعتباره فعينه قائدا عاما للأسطول العثماني في بحر ايجه . وعين اسحق باشا وهو بيزنطي الأصل أيضا وزيرا أعظما ، ثم عاد في عام ٨٧٧هـ ــ ١٤٧٢م ، فعين محمود باشا وزيرا أعظما .

وينبغي أن نسارع فنشير الى أن السلطان الفاتح لم يعزل محمد باشا ، ثم يأمر باعدامه فيما بعد لكونه بيزنطي الأصل ، كما تزعم المراجع الحاقدة ، اذ لو صح

هذا الزعم ، فكيف نفسر اصرار السلطان على تعيين اسحق باشا وهو بيزنطي الأصل أيضاً خلفاً له .

ان السلطان الفاتح لم يعزل محمد باشا ، ثم يأمر بإعدامه ، الا بعد ان ثبت له بالدليل القاطع ، والبينة الناصعة ، أن محمد باشا لم يكن صادق الايمان ، بل كان منافقاً ، وقد انكشف نفاقه وعداؤه للاسلام ، وحقده على المسلمين ، حين بعث به السلطان محمد الفاتح على رأس جيش لاخماد عصيان أعلنه بعض أمراء سلطنة قرمان في مدينة لارندة ، وحين ادرك الأمراء المتمردون أن قواتهم لن تصمد امام الجيش العثماني ، خاصة وأن اهالي مدينة لارندة كانوا يتعاطفون مع السلطان الفاتح ، فروا من المدينة ، فاعلن سكانها ولاءهم للسلطان الفاتح. ولكن محمد باشا أصر على قتلهم جميعاً من غير استثناء ، بل عمد الى قتل العديد من ضباطه وجنوده الذين أنكروا عليه الاقدام على قتل الآلاف من المسلمين سكان المدينة ، واقدامه على احراق المساجد فيها .

ولـم تلبث أنباء المجزرة أن وصلت الى مسامع السلطان الفاتح ، فاستشاط غضباً ، وبلغ به الغضب

عداه ، حين نقل اليه بعض ضباط الجيش أنهم سمعوا محمد باشا يقول بعد أن ارتكب تلك المجزرة :

الآن أشعر بالراحة . بعد أن انتقمت للقسطنطينية.

وقد نقل الواقعة المؤرخ التركي كمال باشا زاده في كتابه « تاريخ كمال باشا زاده » .

وكان من الطبيعي أن يعزل السلطان الفاتح ذلك المنافق محمد باشا عن منصب الصدارة العظمى ، ثم يأمر بإعدامه ، جزاء ما اقترفت يداه الآثمتان من مجازر ضد المسلمين .

ولقد وجد الحاقدون في حادثة عزل محمد باشا وإعدامه ثغرة ينفذون من خلالها حقدهم الأسود ضد الأتراك العثمانيين . فانبرت ألسنتهم ، وأقلامهم ، تتهم العثمانيين بالتعصب العنصري والقومي . وتغاضى هؤلاء الحاقدون عن إقدام السلطان الفاتح على تعيين اسحق باشا ، وهو بيزنطي الأصل ، خلفاً لمحمد باشا .

ولقد كان بإمكان السلطان الفاتح ، بعد أن انكشف نفاق محمد باشا ، أن يتخذ من خيانة ذلك المنافق مبرراً للبطش بكل الذين يتحدرون من أصل بيزنطي ، أو على

الأقل لاقصائهم عن المراكز الحساسة التي كانـوا يشغلونها في الدولة العثمانية . ولكنه لم يفعل ذلك بل اصر على تعيين رجل بيزنطي الأصل خلفاً لمحمد باشا ، لأنه كان يؤمن ايمانا صادقاً بأنه لا تزر وازرة وزر اخرى . وأنه اذا كان التسامح الذي ابداه العثمانيون الأتراك مع العناصر البيزنطية الأصل وغيرها من القوميات الاخرى ، قد ادى الى تسرب بعض المنافقين تحت ستار التظاهر بالاسلام ، من أمثال محمد باشا ، الى بعض مراكز الدولة الحساسة ، فان هذا التسامح قد أفرز شخصيات كثيرة حسن اسلامها ، وقام الدليل على حسن بلائها في سبيل الله ، مـن أمثال خوسية ميخائيل ، واوريوس ، ومحمود باشا ، وغيرهم .

ولئن ثبت فيما بعد ، ان هذا التسامح قد ادى الى تسرب عدد من المنافقين الذين يظهرون الاسلام ، ويبطنون الحقد عليه ، الى مراكز الدولة العليا ، مما عاد على المدى البعيد بالضرر الشديد على الدولة العثمانية ، بل كان احد الأسباب الرئيسية في انهيارها والقضاء عليها ، فان هذا التسامح ينبغي أن يسجل كنقطة ايجابية لصالح العثمانيين الأتـراك المسلمين ، تؤكـد صدق التزامهم

بالاسلام ، الذي جعل رابطة الدين ، ووشيجة العقيدة ، فوق أية روابط عنصرية أو عرقية أو قومية .

ولعل من المفيد ، أن أورد شهادة المؤرخ النصراني جورج كيرك الذي كان أستاذا للتاريخ في الجامعة الأمريكية في بيروت ، اذ يقول في ص ٩ من كتابه « تاريخ الشرق الأوسط من ظهور الاسلام الى الوقت الحاضر » ، المطبوع بالعربية في عام ١٩٥٧ بالقاهرة .

لقد كان عنصر الأتراك القلية في عاهليتهم المتسامحة، ولم يحاولوا استعمار ما فتحوه من الولايات استعمارا تاما ، كما ان الدولة لم تحصر قوام العاهلية في العنصر التركي الضيق النطاق ، بل كان الاعتبار الأول فيها انها عاهلية شاملة ، فكان لكل رجل مهما كان عنصره أو مولده ، مجال لتقلد مناصب الدولة وبلوغ أعلى الدرجات فيها .

واذا كان لا بد من توجيه اللوم بسبب ما نتج عن هذا التسامح ، فلا ينبغي أن يوجه اللوم الى العثمانيين المسلمين الذين التزموا بما يفرضه عليهم اسلامهم ، فترفعوا عن العصبية القومية والعنصرية والعرقية .

امتثالا لهدي نبيهم صلى الله عليه وسلم القائل : « دعوها فانها منتنة » ، وقد كان بامكانهم ، كمنتصرين ، أن يظهروا تعصبا لانتمائهم القومي كأنداد ، لكنهم آثروا الالتزام بما يفرضه عليهم الاسلام من معاملة جميع المسلمين على قدم المساواة ، وتوفير الفرص أمامهم من غير استثناء ، ليعطوا بذلك الدليل الساطع على أنهم ارتفعوا بأنفسهم فوق مستوى عصبية الانتماء القومي ، وارتقوا بها الى رحاب الانتماء العقائدي الشامخ .

ان اللوم ينبغي أن يوجه الى أولئك المنافقين ، الذين فتح الاسلام ، والمسلمون صدورهم على رحبها لاحتضانهم ، فأبوا الا أن يكونوا من الذين قال فيهم رب العزة في كتابه العزيز :

« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » سورة البقرة ٨ ــ ١٠ .

واني لأحسب أن ألسنة الكثيرين تكاد تنطلق بهذا السؤال .

اذا كان العثمانيون قد ارتفعوا بالتزامهم الاسلامي فوق العصبية القومية والعرقية ، فلماذا انتهجوا سياسة التتريك التي حاولوا من خلالها اجبار رعايا الدولة الذين لا ينتمون الى القومية التركية ، بما في ذلك المسلمين ، عربا وغير عرب ، على خلع انتماءاتهم القومية لينصهروا في بوتقة القومية التركية ... ؟

اسمعوها مني صريحة داوية ، ان العثمانيين المسلمين برآء براءة تامة من هذه التهمة ، ولا يحسبن احد انني انفي وقوع هذا الامر ، بل انني اؤكده بكل شدة ، ولكنني اؤكد في ذات الوقت ان الذين تولوا كبر هذه الجريمة المنكرة لم يكونوا عثمانيين ، ولم يكونوا مسلمين، بل كانوا حفنة من الذين اغراهم تسامح العثمانيين الديني ، وترفعهم فوق العصبيات القومية والعرقية ، فتسللوا كالافاعي الى كيان الدولة العثمانية بعد أن تستروا بالاسلام نفاقا ومكرا ، ثم لم يلبثوا ان تسربوا الى مواقع حساسة في الكيان السياسي والتشريعي والعسكري للدولة العثمانية ، حتى اذا سنحت لهم الفرصة وثبوا على السلطة فسيطروا عليها سيطرة خانقة، ولم يبق للعثمانيين المسلمين أي تاثير في شؤون الدولة ،

ولم يعد الخليفة الا دمية بين أيدي هؤلاء ، ينطبق عليه قول الشاعر :

خليفـــــةٌ في قفصٍ بين وصيفٍ وبغـا
يقـولُ مـا قـالا لـه كما تقـولُ الببغـا

الا ، وانّ الذين ارتكبوا جريمةَ اكراه الناس على التترك ، هم مجرمو جمعية الاتحاد والترقي ، وجميعهم من غير استثناء ، كانوا ألعوبة بيد الصهيونية العالمية ، من خلال انتمائهم للمحافل الماسونية ، التي ترتبط ارتباطاً عضوياً بالصهيونية . كما ان معظمهم كانوا من اليهود الذين تظاهروا نفاقاً باعتناق الاسلام ، والذين عرفوا باسم يهود «الدونمة» .

ولقد ظهر اول نشاط تخريبي ليهود الدونمة ضد الدولة العثمانية في زمن السلطان محمد الفاتح ، حيث اقدم طبيبه يعقوب باشا على تسميمه ، ويعقوب باشا هذا يهودي كان قبل تظاهره بالاسلام يتسمى باسم مياستورو جاكوب .

بيد ان نشاطهم المكثف لتنفيذ مخططهم في القضاء على الدولة العثمانية المسلمة بدأ بشكل ملحوظ في عام

١٨٣٠ ، حين افتعلوا أمام الدولة مشكلات أدت الى انسلاخ الجزائر عن الدولة العثمانية ، ثم نجحوا في عام ١٨٨٢ على افتعال أحداث أدت الى انسلاخ مصر ، ثم لم تلبث أن تبعتها تونس .

وبلغ نشاط يهود الدونمة ذروته بعد تشكيل جمعية الاتحاد والترقي حين نجحوا في ايصال اليهودي مدحت باشا وهو ابن حاخام يهودي مجري ، الى منصب الصدارة العظمى ، وقد استغل مدحت باشا منصبه ، فزوّر انتخابات مجلس المبعوثان ليضمن فوز ٤٨ نائبا من غير المسلمين ، من أصل ١١٧ نائبا هم أعضاء المجلس، وحين عزله السلطان عبد الحميد ونفاه الى جدة بعد ثبوت اشتراكه في مؤامرة اغتيال سلفه عبد العزيز ، قامت قيامة قوى الضغط الصهيونية في العالم تنتصر لهذا اليهودي الخبيث ، وتطلق عليه لقب «أبو الدستور» وتلصق بالسلطان عبد الحميد ما هبّ ودبّ من الافتراءات والأباطيل .

ويشتد الأسى في نفس كل مسلم حين يرى الكثير من الألسنة العربية والمسلمة تردد حتى يومنا هذا ، هذه الافتراءات بحق السلطان عبد الحميد .

ولم يرتدع يهود الدونمة بمصير مدحت باشا . بل ظلوا ينفثون سمومهم عبر صحيفة أسسها اليهودي «يلمان» وأطلق عليها اسم «الوطن» ، وما تزال هذه الصحيفة تصدر حتى يومنا هذا ، تحمل اسم مؤسسها ذلك اليهودي الخبيث .

وحين رفض السلطان عبد الحميد في عام ١٩٠٢م الرشوة المالية الضخمة التي عرضها عليه تيودور هيرتزل وايمانويل قره صو ، والحاخام موشيه ليفي ، مقابل السماح لليهود بالهجرة الى فلسطين ، اضاءت الصهيونية «الضوء» الأخضر لجمعية الاتحاد والترقي لشن الهجوم الاخير للقضاء على كيان الدولة العثمانية ، ولم تلبث الجمعية أن وثبت الى السلطة في عام ١٩٠٨م ، لتبدأ في تنفيذ مخططها الرهيب للقضاء على الدولة العثمانية ، فنجحت في اقصاء السلطان عبد الحميد واستبداله بمحمد رشاد الامعة الذي لم يكن يملك من أمر نفسه شيئا ، ومنذ عام ١٩٠٨ وحتى عام ١٩١٨م ، حين اندلعت الحرب العالمية الأولى ، تجح مجرمو جمعية الاتحاد والترقي ، من خلال افتعال المشاكل المتلاحقة ، في ايصال الدولة العثمانية الى أسوأ حالات الفوضى والضعف في

جميع النواحي السياسية والعسكرية والاجتماعية ، واصبحت الدولة في حالة من الوهن لم تقو معها على التصدي للضربة الكبرى التي كان يخطط لها مجرمو الاتحاد والترقي . والتي لم تلبث أن أسفرت عن القضاء على الدولة العثمانية . وابطال مفعول الخلافة الاسلامية ، ولا أقول الغائها ، لأن احدا في هذا الكون ، كائناً من كان ، لن يقدر على الغاء الخلافة الاسلامية .

أعود فأؤكد ، ان العثمانيين المسلمين برآء من جريمة اجبار العرب وغير العرب على التترك . وبرآء من المظالم الهمجية التي أوقعها رجالات الاتحاد والترقي كجمال باشا السفاح وغيره بالأمة العربية . وبرآء من سياسة التجهيل والافقار التي مارسها زبانية الاتحاد والترقي في وطننا العربي ، وبرآء من رجس احياء النعرات العرقية والقومية التي فرقت المسلمين وشرذمتهم وقد كانت تلك البذرة النجسة من غرس جمعية الاتحاد والترقي الضالعة في خدمة الصهيونية ، ومن غرس الأقليات غير المسلمة في وطننا العربي ، بوحي من القوى الكبرى المعادية للاسلام .

ولعل أبلغ دليل على صحة ما أوردت ، هذه العبارات التي أوردها الأستاذ المحامي سليم الصويص في كتابه « أتاتورك منقذ تركيا وباني نهضتها الحديثة » الذي نشر في عام ١٩٧٠ :

يقول الأستاذ الصويص ، وهو عربي نصراني من الأردن :

« هذا هو سجل ثورة ١٩٠٨ الدستورية ( أي الثورة التي جاءت بجمعية الاتحاد والترقي الى السلطة ) ، سجل كله بطش وارهاب ، وسيطرة الجيش على السياسة ، وانتهاج السياسة التي أدت الى الدمار داخليا وخارجيا ، وتحولت الشعارات الدستورية والحريات التي تشدقوا بها ، الى ممارسة أبشع صنوف الاذلال والطغيان » .

الا ، فاسمعوها مني جيدا . ان الذين عكروا مياه الأخوة الاسلامية الصافية بين العرب والأتراك ليسوا العثمانيين المسلمين ، بل عصابات جمعية الاتحاد والترقي .

الا ، فاعلموا أيضاً ، أنه في الوقت الذي كانت نفوس العرب تفور غضباً على ممارسات عصابات الاتحاد والترقي ، وكانها شعوبهم للثورة على استبداد الاتحاديين وظلمهم ، كانت جموع العثمانيين الأتراك المسلمين ، تنطلق في شوارع اسلام بول في الحادي والثلاثين من شهر آذار من عام ١٩٠٩ ، يتقدمها العلماء ، وطلاب الشريعة ، واعداد كبيرة من العسكريين ، تعلن ثورتها ضد تسلط الاتحاديين على الدولة ، وترفع بأعلى صوتها شعار « الشريعة في خطر ، نريد حكم الشريعة » ، ولم تتوقف ثورة الجماهير التركية الا بعد أن تخلى الاتحاديون عن الحكم لكنهم لم يلبثوا أن عادوا متسللين في ظلمات الليل البهيم ، ليثبوا على السلطة من جديد بواسطة جيش جاء من سلانيك ، وكان من كبار ضباطه مصطفى كمال أتاتورك ، وما هي الا أيام الا وكانت اجساد خمسين من العثمانيين المسلمين تتدلى في شوارع استانبول وميادينها ، شاهد صدق على مر العصور ، ان بني عثمان المسلمين رفضوا ، مثلما رفض اخوانهم العرب المسلمون من بعد ، الرضوخ لطغيان عصابة الحقد اليهودي ، جمعية الاتحاد والترقي .

# التسامح الديني في زمن العثمانيين الأتراك

## ميزة ايجابية أنكرها الحاقدون

لئن حاولت الأحقاد المعادية للاسلام أن تطمس هذه الميزة الايجابية ، وتستبدلها بفرية ظالمة تزعم أن الأتراك العثمانيين كانوا يضطهدون غير المسلمين ، ويجبرونهم على اعتناق الاسلام ، قسرا ، فان الحقيقة التي تتهاوى أمامها افتراءات الحاقدين تؤكد أن العثمانيين جسدوا بصدق أخلاق الاسلام السمحة في معاملتهم لغير المسلمين. أقول هذا وبين يدي أكثر من دليل :

**أولا :** ان طبيعة الاسلام الحق الذي التزم به العثمانيون ترفض رفضا قاطعا مبدأ الاكراه في الدين « لا اكراه في الدين » . بل ان أخلاق القرآن ، وصدق النبوة ، تحض على معاملة أهل الكتاب معاملة طيبة ، طالما ابتعدوا عن الكيد للاسلام ، وعن اثارة الفتن ضد المسلمين •

**ثانيا :** تروي معظم المراجع التركية التي أرخت للعثمانيين ، أن أرطغرل عهد لابنه عثمان مؤسس الدولة العثمانية بولاية القضاء في مدينة قره جه حصار بعد الاستيلاء عليها من البيزنطيين في عام ٦٨٤هـ ـ ١٢٨٥م،

وان عثمان حكم للبيزنطي نصراني ضد مسلم تركي . فاستغرب البيزنطي وسأل عثمان : كيف تحكم لصالحي وانا من غير دينك . فأجابه عثمان :

بل كيف لا أحكم لصالحك ، والله الذي نعبده ، يقول لنا :

« ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وكان هذا التسامح الكريم سبباً في اهتداء الرجل وقومه الى الاسلام .

ثالثاً : ينقل أمير البيان شكيب ارسلان في تعليقاته على كتاب حاضر العالم الاسلامي . أن السلطان سليم عندما رأى ان عدد أهل الكتاب من النصارى واليهود في الدولة العثمانية قد زاد عن بضعة ملايين . وان هذا العدد ما ينفك يزداد عاماً بعد عام ، حدثته نفسه أن يجد طريقة يتخلص بها من تزايدهم فعزم على ان يخيرهم بين اعتناق الاسلام . او فالطرد من أراضي الدولة العثمانية .

ولكن . عندما تناهى الخبر الى مسامع شيخ الاسلام العالم المؤمن علي افندي الزنبيلي . انبرى للسلطان

معترضا على هذا الرأى الذي تأباه طبيعة الاسلام ، وقال للسلطان سليم :

ليس لنا على هؤلاء النصارى واليهود الا الجزية ، فما داموا يؤدونها ، فقد عصموا منا دماءهم ، وأعراضهم ، وعباداتهم ، وما يعتقدون ، فلا يحق لك أن تزعجهم في دينهم ، ولا يحق لك أن تخرجهم من ديارهم .

هنالك أعلن السلطان سليم عن رضوخه لحكم الاسلام ، ورجع عن عزمه ، وهنا أتوقف وقفة قصيرة لاشير الى ان عدد اهل الكتاب ما كان ليزداد تلك الزيادة لو لم يكونوا يتمتعون في كنف العثمانيين المسلمين بالحرية الكاملة في عقيدتهم ، وعبادتهم ، وحرياتهم الشخصية ، ولو لم يكونوا يتمتعون بالأمان والاستقرار الذى وفره لهم عدل الاسلام وسماحة الاسلام .

**رابعاً :** ولقد سجل الأمير سليمان باشا ابن السلطان اورخان موقفا كريما يجسد صدق التزام العثمانيين بأخلاق الاسلام وسماحة الاسلام في مجال التعامل مع أهل الكتاب . ففي عام ٧٥٥هـ ــ ١٣٥٤م . سجل التاريخ في صفحاته عملية أول عبور عثماني اسلامي الى البر الاوروبي للامبراطورية البيزنطية ، حين تسلل سليمان باشا على رأس ثمانين من صناديد المجاهدين

الى ميناء جيمنك . فاستولى على جميع السفن الحربية التي وجدها في الميناء ، واستعملها في جلب الامدادات من البر الآسيوي . أما السفن المدنية ، فقد أصر على ان يترك لاصحابها حرية التصرف بها . وحين اضطر الى استعمال بعضها في نقل الامدادات ، أصر على ان يدفع لاصحابها مقابل ذلك اجوراً مجزية . وقد كان بامكانه ، كمنتصر ، ان يصادر السفن المدنية مع غيرها من السفن الحربية .

خامساً : ويشير المؤرخ التركي أحمد رفيق في كتابه « بيوك تاريخ عمومي » ، أي « التاريخ العمومي الكبير » ، الى ان اهالي المدن البيزنطية المفتوحة لم يكونوا يعتبرون استيلاء العثمانيين المسلمين على مدنهم مجرد فتح لها وانما كانوا يعتبرون ذلك تخليصاً لهم وانقاذاً من ظلم الدولة البيزنطية . ويعبر أحمد رفيق عن ذلك بقوله باللغة التركية القديمة : « اهالي يه اودرجه أمن واعتماد بخش ايله مشدي كه ، بونلر مسلمان عثمانليلري فاتحدن زيادة خلاصكار صفتيله قبوله باشلاشلردي » وترجمتها الحرفية بالعربية :

« لقد بدأ الاهالي (اهالي المدن البيزنطية المفتوحة) يشعرون بالأمن والثقة ، لدرجة أنهم كانوا لا يعتبرون

الامر مجرد فتح لمدائهم ، وانما تخليصا لهم وانقاذا لهم ايضا ، .

والعمرى ، ان هؤلاء البيزنطيين ما كانوا ليعتبروا العثمانيين المسلمين منقذيـن ومخلصين لهم مـن ظلم البيزنطيين ، لولا انهم وجدوا منهم كل تسامح ومعاملة طيبة كريمة .

ويروي احمد رفيق أن أورخان بن عثمان ، عندما فتح الله عز وجل عليه مدن مالتبه ، وازميت ، وازنيك ، عامل اهالي هذه المدن من النصارى معاملة طيبة ، واقام العدل بينهم ، فاسلم الكثيرون منهم ، اما الذين آثروا البقاء على دينهم ، فقد امنهم على دينهم ، وأعراضهم ، وأموالهم ، وحرياتهم ، مقابل الجزية ، كما سمح لمن اراد الهجرة منهم الى داخل الامبراطورية البيزنطية ببيع املاكهم ، والأخذ كل ما يرغبون من اموالهم ومتاعهم معهـــم .

سادسا : يقول الدكتور فاضل حسين في كتابه « محاضرات عن مؤتمر لوزان وآثاره في البلاد العربية » المطبوع في عام ١٩٥٨م :

كان الأتراك العثمانيون أقوياء وأصحاء ، وقد حكم الدولة الجديدة سلسلة من الحكام القديرين الذين اتبعوا سياسة التسامح الديني نحو رعاياهم من غير المسلمين ، فاستطاعوا استمالة الكثير من الأمراء المسيحيين المتشفقين على حكوماتهم .

**سابعا** : ولقد سبق أن قلت أن الفضل ما شهدت به الأعداء ، ولذا فاني سأورد شهادات مصادر معادية للإسلام تؤكد ان العثمانيين اظهروا تسامحا دينيا كريما تجاه غير المسلمين .

* ففي الصفحة رقم ٢٧٦ من المجلد الثامن من الموسوعة اليونانية الشهيرة المعروفة باسم (Megalia Elliniki Engiklopedia)
المطبوعة في اثينا في عام ١٩٣٢م تذكر الموسوعة اليونانية ان اورخان بن عثمان بعد أن استسلمت له حامية مدينة ازنيك البيزنطية أعطى الأمان لجميع أهاليها من الروم البيزنطيين - على حياتهم ، وأموالهم ، وأعراضهم ، وممتلكاتهم .

وتردف الموسوعة اليونانية قائلة :

ان النصارى البيزنطيين آثروا البقاء في مدينتهم وأملاكهم تحت سيادة العثمانيين ، عندما خيرهم اورخان

بين البقاء فيها أو اخذ كل ما يريدون من أموالهم ومتاعهم والذهاب الى اية منطقة بيزنطية أخرى ان ارادوا البقاء على ولائهم للامبراطورية البيزنطية .

* أما شهادة الكاتبة الأمريكية الدكتورة ماري ملزباتريك فهي تعدل ألف شهادة . ذلك ان هذه الامريكية عاشت في استانبول في بداية هذا القرن والفت كتاباً اسمته « سلاطين بني عثمان » نفثت في صفحاته ركام أحقاد قرون طويلة من العداء للاسلام والمسلمين .

تقول ماري ملزباتريك في كتابها الذي ترجمه الى العربية في عام ١٩٣٢ حنا غصن وكامل مروة ، وكامل صموئيل مسيحة :

« الواقع ان السلطان محمد قد أظهر تسامحاً عظيماً مع المسيحيين . وليس أدل على تسامحه معهم من قوله لهم : « اني أقسم بحرمة مساجد الله التي تتعبد بها . ان اضمن لكم أن تجتمعوا في كنائسكم للصلاة والتضرع الى الله » . »

* ويقول المؤرخ الفرنسي كارادوكو في كتابه « مفكرو الاسلام » :

« حتى دخل السلطان محمد كنيسة أياصوفيا ، أراد أن يراعي شعور النصارى ، فلم يشأ أن يمحو العديد من صور القديسين التي امتلأت بها جدران الكنيسة ، وقد كان بامكانه كمنتصر أن يفعل ذلك ، ولكنه اكتفى بأن أمر بأن تغطى لأن الاسلام يحرم الصور » .

• ولعل شهادة المستشرق الألماني كارل بروكلمان. التي وردت في الجزء الثالث من كتابه « تاريخ الشعوب الاسلامية » تعطي الدليل الناصع على أن الأتراك العثمانيين أظهروا تسامحا كريما في معاملتهم لأهل الكتاب . فقد ذكر كارل بروكلمان أن تطلع شبان النصارى الى مستقبل باهر جعلهم يتعلقون بشخص السلطان العثماني ويخلصون له .

ولعمري ، انه لولا ما كان يراه هؤلاء النصارى من تسامح كريم ، ومعاملة نبيلة ، تفرضها سماحة الاسلام، واخلاق الاسلام فانهم ما كانوا يطمحون الى تحقيق مستقبل باهر في كنف العثمانيين ، وما كانوا يندفعون بكل حماس للدخول في دين الله عز وجل .

ولعل هذا الخبر الذي نشرته مجلة نصرانية يعطي مزيدا من الأدلة على صدق التزام العثمانيين بسياسة التسامح الديني مع أهل الكتاب ، فقد نشرت مجلة «المشرق» التي كانت تصدر بادارة كلية القديس يوسف، ويترأس تحريرها الأب لويس شيخو اليسوعي ، في عددها الصادر في شهر تشرين الثاني من عام ١٩١١م ، الخبر التالي على الصفحة رقم ٨٩٨ :

« من بين الدلائل على أن الدولة العثمانية العلية تريد المساواة بين عناصرها المختلفين ، انها قامت في العام المنصرم ، بتعيين أحد مواطنينا الروم الكاثوليك وهو السيد ابراهيم افندي صوصا ، واليا على احدى الولايات العثمانية الهامة التي تضم جزائر بحر سفيد والارخبيل ، ورودس ، وكرباتوس ، ويتموي ، وصاقس، ومدالي ، وشوس ، واصبروس » .

وتردف المجلة قائلة :

وقد دعي دولته مؤخرا ليشغل منصب الوزارة لادارة شؤون البريد في الدولة » .

* ونعود الى الدكتورة الامريكية ماري ملزباتريك ، لنقدم هذه الشهادة التي اوردتها في كتابها « سلاطين بني عثمان » .

تقول ملزباتريك :

الواقع أن السلطان محمد الفاتح أظهر تسامحاً عظيماً مع المسيحيين (النصارى) ، وكان لكل ملة في زمنه رئيس ديني لا يخاطب غير حكومة السلطان مباشرة ، ولكل ملة من هذه الملل مدارسها الخاصة ، وأماكن للعبادة وأديرة ، كما أنه لم يكن يحق لأحد أن يتدخل في ماليتها ، وكانت تطلق الحرية لكل ملة لتتكلم اللغة التي تريدها .

* ويقول برنارد لويس رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الافريقية والشرقية في جامعة لندن في كتابه « العرب والشرق الأوسط » :

لقد أصبح اليونانيون الأرثوذكس مواطنين تابعين للسلطان العثماني . فلم يعودوا أعداء يخشى جانبهم بعد أن تحولوا إلى جيران مسالمين .

ويردف برنارد لويس قائلاً :

كانت المسيحية (النصرانية) واليهودية . في نظر العالم الاسلامي ، دينين سماويين ينظر اليهما المسلمون نظرة تسامح . وقد انعكست هذه النظرة المتسامحة من

المسلمين في المعاملة الحسنة ، والتسامح الكبير الذي يلقاه اتباع الديانة المسيحية (النصرانية) في المجتمعات الاسلامية ، بالرغم من موقف المسيحيين العدائي للاسلام كديانة منافسة .

**ثامنا** : ولقد كان لغير المسلمين في مجلس المبعوثان ، مجلس النواب ، كما يروي أمير البيان شكيب ارسلان الذي كان نائبا في المجلس ، خمسة عشر مقعداً للنصارى الارثوذكس ، وخمسة عشر مقعداً للنصارى الأرمن ، وخمسة مقاعد لنصارى العرب ، وبالاضافة الى هؤلاء كان في المجلس عدد من النواب اليهود .

**تاسعا** : وينبغي ان اشير الى ان رعايا الدولة العثمانية من غير المسلمين كانوا يخضعون لنظام خاص اطلق عليه اسم « نظام الملل » ، وهو نظام يرعى شؤونهم الدينية ويفصل في قضاياهم الشخصية ، ولم تكن الدولة بموجب هذا النظام تتدخل في أي شأن من شؤونهم ، وكانت تعتبر الرؤساء الدينيين لكل طائفة غير مسلمة مسؤولين عن شؤون تلك الطائفة .

وقد وضع هذا النظام في زمن السلطان محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية مباشرة ، ثم عدل واضيفت عليه

امتيازات جديدة في عام ١٨٥٦م بعد انتصار الأتراك على روسيا في حرب القرم . وسمي هذا النظام المعدل باسم « خط همايون » .

* * *

والآن . وبعد ان سقنا هذه الوقائع والحوادث . وهي فيض من فيض من مئات الوقائع والحوادث المماثلة التي يزخر بها تاريخ الأتراك المسلمين . والتي تصلح كل واحدة منها لتكون دليل البراءة للعثمانيين المسلمين من فرية اضطهاد النصارى وغيرهم من أهل الكتاب .

الآن . تبقى لدينا كلمة . لا بد ان نقولها .

ان هؤلاء الذيـن يرمون الأتراك المسلمين بفرية اضطهاد النصارى . واجبارهم على دخول الاسلام . مثلهم كمثل الغانية التي تتحدث عن الفضيلة . واللص الذي يتحدث عن الأمانة . والمجرم الذي يتحدث عن الشفقة والرحمة . بل لكأني بالذي قال المثل السائد « رمتني بدائها وانسلت » . ما أراد بمثله هذا الا هؤلاء الحاقدين المفترين .

والا فكيف يجرؤ هؤلاء على اتهام الأتراك المسلمين بهذا البهتان اللئيم ، ثم يتناسون ما اقترفته أيديهم وسيوفهم من مجازر وحشية ضد المسلمين ؟

ولئن كان اولئك الحاقدون يتناسون ، فان ذاكرة التاريخ لا تنسى !

فذاكرة التاريخ تقول على لسان ابن الاثير في كتابه « الكامل في التاريخ » :

« ان ملك الروم نيقفور يوحناس بنى على مقربة من حدوده مع ديار الاسلام مدينة ليكون قريباً من تخوم المسلمين ، وكان المسلمون في طرسوس ، ومصيصة في حال من الضنك والضعف لا يقدرون معها على التصدي لنيقفور . فارسلوا اليه يطلبون مهادنته ، فوعدهم بذلك ، وارسل اليهم وفداً يعقد العهد معهم . فلما عاد الوفد الى نيقفور ، أخبروه بما وجدوا عليه المسلمين من ضعف وجوع ، حتى بلغ بهم الامر أن يأكلوا الكلاب الميتة ، فاغراه ذلك بالغدر ، وتفجرت الاحقاد في قلبه ، فانكر وعده ، وهجم على مصيصة ، فاقتحمها في الثالث عشر من رجب من عام ٣٥٤هـ ـ ٩٦٥م ، واعمل السيف في

المسلمين ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، ثم استباح المدينة ، واسترق من بقي من أهليها المسلمين رجالا ونساء وأطفالا وشتتهم في سائر بلاد الروم ، وكانوا قريباً من مئتي ألف إنسان .

ثم مضى نحو طرسوس ، فلقيه أهلها برايات الاستسلام ، فدخلها ، وعمد الى مسجدها الكبير ، فحوله الى اسطبل لخيوله ، ثم عمد الى المسلمين ، فخيرهم بين الدخول في النصرانية ، أو أن يطردهم خارج ديارهم وأموالهم ، فتنصر منهم من تنصر ، وآثرت الكثرة منهم الهجرة الى ديار المسلمين فرارا بدينهم وأعراضهم .

وذاكرة التاريخ تقول ان الالوف من جنود الحملة الصليبية الرابعة ، عندما وصلوا الى القسطنطينية ، وكانت آنذاك عاصمة النصرانية الشرقية ، لم يكترثوا لأخوة الدين التي تجمعهم بأهالي القسطنطينية ، فاستباحوها ، ونهبوا كنائسها ، وأعملوا السيف في أهلها من اخوانهم في الدين .

وذاكرة التاريخ لم تنس ، وأنى لها ان تنسى ، تلك المجزرة الوحشية التي اقترفها الصليبيون ، عند

استيلائهم على انطاكية عام ٤٩١هـ ، حيث طفق أهل المدينة من السريان والأرمن يرحبون بهم ويساعدونهم على قتل المسلمين .

ويروي مؤلف كتاب « زبدة الحلب » أن الصليبيين تطرفوا في قتل كل من وجدوه في انطاكية من المسلمين ، فقتل واسر وسبي من الرجال والنساء والأطفال ما لا يدركه حصر .

وذاكرة التاريخ لم تنس ، وأنى لها أن تنسى ، تلك المجزرة الوحشية التي ارتكبها الصليبيون في بيت المقدس يوم اقتحموها عام ٤٩٢هـ - ١٠٩٩م ، اذ لبث الصليبيون اسبوعا كاملا يقتلون فيه كل ما تطاله سيوفهم من المسلمين ، حتى بلغ شهداء المسلمين في تلك المجزرة اكثر من سبعين الف شهيد بين رجل وامرأة وطفل .

وبلغ من حقد هؤلاء الصليبيين ان يكتب احد أمرائهم الى زوجته في اوربا يبشرها أن « جنودنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم في دماء المسلمين » . بل ان المؤرخ الصليبي وليم الصوري لا يملك الا أن يعترف أن بيت المقدس

اصبحت ، مخاضة واسعة من دماء المسلمين تبعث على الاشمئزاز » .

وذاكرة التاريخ تقول أن القائد المجري هونياد بعد ان هزم جيشا للعثمانيين المسلمين في زمن السلطان مراد الثاني عام ١٤٤٢م ، قتل جميع الأسرى المسلمين وكان عددهم يربو عن العشرين الف ، وانه كان يتلذذ اثناء تناوله لوجبات طعامه بمشاهدة جلاديه وهم يقطعون رؤوس الأسرى المسلمين ، ويأمر بتجميع تلك الرؤوس على شكل اكوام لا تلبث ان تصبح هدفا لهونياد وحاشيته يرشقونها بالحصى وهم يتضاحكون .

وما لنا نكاد ننسى مجازر الأندلس ، ومحاكم تفتيشها ، وما ادراك ما محاكم تفتيشها . يوم كان يؤتى بالمسلم مكبلا بالحديد ، فيوضع على النطع ، ويعلو من فوق رقبته سيف الجلاد ، أو يؤتى به الى نفق حفرة تستعر فيها النيران . ثم يخير بين النصرانية او الموت قتلا بالسيوف أو تحريقا بالنيران ، حتى لم يبق في الأندلس كلها مسلم واحد يشهد ان لا اله الا الله ، بل لقد اشتط الحقد بأولئك الصليبيين فعمدوا الى مقابر المسلمين يمحونها من على وجه الأرض .

أفيبقى بعد كل هذه الأدلة وتلك ، أي شك في براءة الأتراك المسلمين من فرية اضطهاد النصارى ٠٠ ؟
ثم أيبقى بعد كل هذه الأدلة وتلك ، أي شك في أولئك الذين يرمون الأتراك المسلمين بتهمة الوحشية ، هم أنفسهم المتوحشون ، الذين انقطع بينهم وبين الإنسانية والخير كل رباط ٠

# العثمانيون الأتراك

## لعبوا دورا رائدا في إعادة لحمة الوحدة الاسلامية ، ولم يكونوا مستعمرين ولا مستبدين

« الاستعمار العثماني » . . . !

« الاستعمار التركي » . . . !

« نير الاحتلال التركي » . . . !

« الاستبداد التركي » . . . !

هذه العبارات الظالمة ما زالت أجيالنا المسلمة تتلقاها في معظم مدارسها ، ومعاهدها ، وجامعاتها ، وكأنها يقين لا يرقى اليه شك . . .

ان حق الاخوة الاسلامية ، وان مقتضيات الأمانة العلمية ، يضعان في عنق كل مسلم ومسلمة غيور مسؤولية التصدي لاستنكار هذا البهتان العظيم الذي الصق بالعثمانيين الأتراك .

ان الأتراك العثمانيين لم يستعمروا البلاد العربية . وانما اعادوا لحمة الوحدة اليها تحت الراية الاسلامية . بعد ان رزحت طويلا في مستنقعات التشرذم والخلافات التي كانت تحتدم بين الزعامات الهزيلة .

ان الأتراك العثمانيين لم يعتدوا على البلاد العربية . وانما هرعوا لانقاذها من اخطار الاطماع الصليبية التي كادت توشك ان تنقض عليها والتي وصلت جيوشها البرتغالية الى البصرة بعد ان سيطرت على عمان ومسقط ومضيق هرمز . لتتخذ منها نقطة انطلاق نحو الحجاز ومصر والشام . بينما هددت الاساطيل الاسبانية شمال افريقيا العربي المسلم .

ان الأتراك العثمانيين لم يكونوا مستبدين ، ولم يقيدوا حريات العرب أو غير العرب . ويكفي الأتراك العثمانيين فخرا ان المواطن العثماني ، عربياً كان ، أو تركيا . او كرديا او أيا ما كان انتماؤه القومي . كان يجوب ارجاء الدولة العثمانية من اسلامبول وحتى طنجة واليمن . وهو مطمئن انه ينتقل في وطنه ، لا يسأله احد عن جواز سفر ولا تتعقبه عيون السلطة .

ويكفي الأتراك العثمانيين فخراً انهم رواد الوحدة العربية الحقيقية حين وحدوا البلاد العربية كلها تحت راية الاسلام . فلما أن غابت تلك الراية التي تشرف العثمانيون برفعها ، انفرط عقد الوحدة العربية الحقيقية ، وتمزقت الراية الواحدة لتصبح بضعا وعشرين راية ، واصبح المواطن العربي لا يستطيع السفر من بلد عربي الى آخر ، الا بعد ان ينتظر ساعات طويلة على الحدود ، وقد يسمح له بالسفر ، وقد لا يسمح له فيعود من حيث أتى . وقد يقذف به في دهاليز المخابرات فلا يدري احد متى يعود !

فيا أيها الذين يبحثون عن الحق والحقيقة ، اسمعوها صريحة داوية :

ما كان العثمانيون الاتراك مستعمرين ولا مستبدين، وانما كانوا رواد الوحدة الاسلامية الحقيقية وحماتها .

اقول هذا وبين يدي اكثر من دليل .

اننا حين نقرأ التاريخ القديم والحديث . نجد أن كل الهجمات الاستعمارية . أيا كانت راياتها ، كانت تنطلق بدافع الاطماع الاقتصادية ، أو السياسية ،

أو الدينية ، التي كانت تستحوذ على عقول المستعمرين ، فتغريهم باستعمار غيرهم من الشعوب .

ونحن ندرس تاريخ العثمانيين الاتراك نجد أنهم كانوا حريصين على أن لا يرفعوا سيوفهم الا في وجه أعداء الاسلام ، البيزنطيين الارثوذكس ، وحلفائهم نصارى أوروبا الكاثوليك ، ونجد أن الأتراك العثمانيين لم يرفعوا سيوفهم في وجه مسلم الا بعد أن يكونوا قد استنفدوا جميع الوسائل لمنع ذلك ، فكانوا يضطرون لذلك مرغمين ، ومن الانصاف ان نذكر أن معظم الذين كان العثمانيون يحاربونهم من شراذم أمراء الامارات السلجوقية كانوا يستعينون على العثمانيين بأعداء الاسلام من البيزنطيين أو البنادقة .

لقد كانت أنظار العثمانيين الاتراك مصوبة نحو القسطنطينية باعتبارها السد المنيع الذي يحول بين الاسلام وبين التقدم في أوروبا النصرانية ، ولم يكن يشغلهم عن هذا الهدف الا ما كان يفتعله بعض أمراء السلاجقة من مكائد ضد الدولة العثمانية ، كما حدث من أعلن الامير علاء الدين أمير سلطنة قرمان السلجوقية

الثورة على السلطان مراد بن أورخان ، زاعما انه الوريث الاحق بالسلطنة باعتباره الوارث الشرعي لزعامة دولة سلاجقة الروم . فاضطر السلطان مراد آنذاك الى ارجاء خطته لغزو القسطنطينية ليتفرغ للقضاء على فتنة علاء الدين .

وفي الوقت الذي حرص فيه العثمانيون الاتراك على تجميع القوى الاسلامية في الاناضول التركي لمواجهة العدو البيزنطي ـ الاوربي . فقد حرصوا على توثيق العلاقات الاخوية الاسلامية مع المراكز الاسلامية الاخرى، واعطوا اهمية خاصة لتوثيق علاقاتهم بدولة المماليك التي كانت تعتبر اقوى زعامة اسلامية في البلدان العربية بحكم خضوع مصر والشام والحجاز لسيطرتها .

وكانت اول محاولة عثمانية لتوثيق علاقات الاخوة الاسلامية بدولة المماليك في عهد السلطان مراد بن اورخان حين ارسل وفدا خاصا الى سلطان مصر يبشره فيها بتحرير مدينة ادرنة من البيزنطيين ، وبرفع الراية الاسلامية فوقها في عام ٧٦٣هـ ـ ١٣٦٢م .

وحين استشهد السلطان مراد بن اورخان بضربة غادرة من جندي صليبي اثناء تفقده لجرحى معركة

موصوه (٧٩١هـ – ١٣٨٩م) ، كان لخبر استشهاده رنة حزن عميق في جميع أنحاء العالم الاسلامي . وكان السلطان المملوكي برقوق من أوائل الذين أرسلوا وفداً للتعزية بالشهيد .

وفي عهد السلطان العثماني بايزيد الصاعقة ابن مراد ، عرض السلطان بايزيد على سلطان مصر المملوكي برقوق تشكيل جبهة اسلامية موحدة تلاحق « أهل الصليب » في عقر دارهم أوربا .

وحين اقتحم تيمورلنك بغداد عاصمة الخلافة العباسية التي كانت آنذاك اسما على غير مسمى ، لم يكتف العثمانيون الأتراك باعلان تضامنهم مع الخليفة العباسي ، بل اتخذوا موقفا علنيا الى جانبه . فاحتضنوا الأمير أحمد جلاير ، أمير بغداد الذي التجأ اليهم ، وأمدوه بالمعونة العسكرية والمادية للتصدي لتيمورلنك واستعادة مركز الخلافة العباسية ببغداد منه . وكان لهذا الموقف العثماني تأثير كبير في توثيق العلاقات بين الدولة العثمانية وبين دولة المماليك التي كانت تعتبر نفسها حامية الخلافة العباسية بعد أن التجأ اليها

الخليفة العباسي المتوكل على الله الأول فرارا من تيمورلنك . وقد لعب السلطان برقوق دورا كبيرا في اقناع الخليفة العباسي باسباغ لقب «سلطان الروم» على بايزيد الصاعقة . فاشتد حنق نصارى أوروبا وتيمورلنك . فقد اعتبروا هذا التكريم لبايزيد بمثابة اعتراف رسمي من أكبر سلطة دينية اسلامية في ذلك الوقت متمثلة في الخليفة العباسي ، بسلطة بايزيد على الاجزاء الأوروبية التي استولى عليها من البيزنطيين .

وازدادت العلاقة الأخوية الاسلامية بين الدولة العثمانية ودولة المماليك حتى بعث السلطان محمد الفاتح بوفد يحمل الى سلطان مصر أينال شاه بشرى استيلاء المسلمين على القسطنطينية . وينقل ابن أياس في كتابه «بدائع الزهور» وصفا لوصول وفد السلطان الفاتح الى القاهرة فيقول :

لما وصل وفد الفاتح ، زفت البشائر بالقلعة ، ونودي في القاهرة بالزينة ، ثم ان السلطان عين برسباي أمير آخور رسولا الى ابن عثمان لتهنئته بالفتح .

ويقول المؤرخ المصري ابن تغري بردي في كتابه « حوادث الدهور » أن وفد السلطان الفاتح وصل الى القاهرة في الثالث والعشرين من شوال من عام ٨٥٦هـ وفق ٢٧ تشرين أول من عام ١٤٥٣م ، وكان مع الوفد هدايا وأسيران من عظماء الروم . فسر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم ، ودقت البشائر لذلك ، وزينت القاهرة بسبب ذلك أياما . ثم طلع الوفد ومعه الأسيران الى القلعة في يوم الاثنين ، الخامس والعشرين من شوال ، بعد أن اجتاز الوفد شوارع القاهرة . وكان الناس قد زينوا الحوانيت ، والأماكن ، وأمعنوا في ذلك الى الغاية ، وعمل السلطان الخدمة (الضيافة) بالحوش السلطاني في قلعة الجبل .

وكان لفتح القسطنطينية أثر كبير في ايقاظ مشاعر الاخوة الاسلامية التي كانت ظروف التشرذم السياسي المستحكمة آنذاك في العالم الاسلامي قد كبتتها عقودا طويلة .

بعد أن حرص العثمانيون الاتراك على تعزيز الروابط الاخوية الاسلامية مع دولة المماليك الشراكسة بدا يقابل بشيء من الفتور من قبل المماليك بعد أن شعروا

بتعاظم شعبية العثمانيين بين المسلمين نتيجة لاستيلائهم على القسطنطينية ورفعهم راية الاسلام فوق ربوعها . ولم يطل الامر حتى بدأ المماليك الشراكسة يتوجسون خيفة من العثمانيين الاتراك . فتبدلت نظرتهم الى العثمانيين من مشاعر الاعتزاز الى مشاعر الغيرة ، ولم يعودوا يعتبرون العثمانيين اخوانا في الدين ، بل منافسين لهم على زعامة المسلمين التي كان المماليك الشراكسة يعتبرون انفسهم الاحق بها باعتبار انهم كانوا يحتضنون الخليفة العباسي ، رمز الخلافة الاسلامية .

ولئن كانت الوقائع التاريخية تشير الى براءة العثمانيين الاتراك من التسبب في تلك الازمة التي اعترت علاقتهم بالمماليك الشراكسة . فان من مقتضيات الحق والحقيقة ، ان نومىء بأصابع الاتهام الى المماليك الشراكسة ، وتحميلهم مسؤولية ما وصلت اليه العلاقات العثمانية المملوكية من فتور . لم يلبث أن تطور الى مجابهة مكشوفة ، حين أقدم المماليك في عام ٨٧٦هـ ـ ١٤٧١م على مهاجمة مقاطعتي مرعش وبلبستان اللتين كانتا تخضعان للحماية العثمانية ، وازداد الامر سوءاً حين أقدم المماليك على اعدام حاكم المقاطعتين شهوار بك ،

شقيق زوجة السلطان محمد الفاتح . وتعليق رأسه على باب زويلة في القاهرة .

ومع ان ذلك الاستفزاز السافر قد أغضب السلطان محمد الفاتح ، الا أنه آثر آن يكظم غيظه . حقنا للدم المسلم ان ينساب في غير الهدف الذي ينبغي ان يسيل من اجله . خاصة وانه كان يواجه في ذلك الوقت احلافاً صليبية متواصلة تكيد للدولة العثمانية المسلمة .

بل لقد عمد السلطان الفاتح الى تناسي تلك الحادثة الاستفزازية . وارسل الى الملك الأشرف سيف الدين قايتباي يطلب اليه السماح له بانشاء استراحات لاستضافة حجاج بيت الله الحرام على طول طريق الحج الى مكة المكرمة على حسابه الخاص ، فما كان من السلطان قايتباي الا ان اشتط في استفزازه للسلطان الفاتح ، فرفض طلبه ، بعد ان خشي ان تزيد هذه الاستراحات من شعبية السلطان الفاتح في بلاد الشام ومصر والعـــراق .

وينبغي ان نشير هنا الى نقطة في غاية الأهمية . وهي ان السلطان الفاتح آثر ان يكظم غيظه ، ويلجم

نفسه ، استجابة لمقتضيات الأخوة الإسلامية التي كان العثمانيون يحرصون على ابرازها في جميع تصرفاتهم ، ولو انه اراد أن يقابل استفزاز المماليك الشراكسة واساءاتهم لاستطاع أن يفعل ذلك بكل تأكيد . ولو انه فعل ذلك فانه سيجد من المسلمين في مصر وبلاد الشام تعاطفا وتأييدا . باعتباره بطلا اسلاميا حظي بشرف قيادة الجيش الذي شرفه الله عز وجل بفتح القسطنطينية . ونظرا لأن المماليك الشراكسة لم يكونوا يتمتعون آنذاك بشعبية صادقة سواء في مصر او الشام .

ولقد ذكرنا ان المماليك الشراكسة صعّدوا استفزازاتهم للدولة العثمانية في وقت كانت تواجه فيه اخطار المكائد الصليبية ، التي تمثلت آنذاك في تشكيل حلف صليبي انبثق عن مؤتمر ترأسه البابا بول الثاني في رمضان من عام ٨٧٥هـ ( كانون ثاني ١٤٧٦م ) ، وانضم اليه ملك نابولي وملك الاراغون ، وزعماء جمهوريات البندقية ، وفلورنسة ، وسيينا ولوكوس ، وزعماء دوقيات ميلانو ، وفراري ، ومودينا ، وسافوي ، ولقد بلغ استفزاز المماليك الشراكسة للعثمانيين مداه حين قبلوا التفاوض مع مندوبي هذا الحلف الذين

عرضوا على المماليك الدخول في الحلف ضد الدولة العثمانية ، أسوة بالأمير حسن الطويل الذي قبل التحالف مع الصليبيين ضد العثمانيين المسلمين .

ولئن كان المماليك الشراكسة قد اعتذروا عن الدخول في الحلف ، الا انهم وعدوا بأن يمدوا يد العون الى المناوئين للدولة العثمانية في الاناضول المتاخم لحدود بلاد الشام ، وخاصة للأمير حسن الطويل .

بيد ان مكر الله عز وجل كان أكبر من مكر المماليك الشراكسة وحليفهم حسن الطويل ، فبينما كان المماليك الشراكسة يبدون استعدادهم لتقديم أية مساعدات الى حسن الطويل بما في ذلك المشاركة الفعلية في النشاطات الحربية ضد العثمانيين في المناطق المتاخمة لحدودهم مع الدولة العثمانية ، كان الغرور قد بلغ بحسن الطويل مبلغا جعله يعتقد انه صاحب الحق الوحيد في وراثة الدولة العثمانية ودولة المماليك الشراكسة معا ، فبعث برسالة الى زعماء البندقية ، يقترح عليهم تعديل خططهم بحيث لا يقتصر هجوم جيوش الحلف الصليبي على الدولة العثمانية وحدها ، وانما على مصر والشام أيضا ، وكان من حسن حظ العثمانيين أن يقع رسول حسن

الطويل في قبضة العثمانيين . فانكشفت خديعة حسن الطويل ، وما كان من السلطان الفاتح الا ان ارسل الرسالة الى السلطان الاشرف قايتباي في مصر ، الذي ادرك بعد ان تكشفت له حقيقة حسن الطويل ، ان عليه ان يقف على الحياد ، رغم ما كان يضمره في سريرته من عداء للدولة العثمانية .

وينبغي ان نشير الى انه لو نجح البابا بول الثاني في جر المماليك الشراكسة الى التحالف الصليبي الذي تراسه ، او لو ان حسن الطويل لم يقدم على خيانة المماليك الشراكسة ، واستمر في تعاونه معهم باخلاص ، فان الدولة العثمانية كانت ستجد نفسها في مأزق خطير يهدد كيانها بالانهيار الكامل ، حيث كانت ستقع بين مطرقة الحلف الصليبي ، وسندان التحالف المملوكي مع حسن الطويل .

ولم تلبث العلاقات العثمانية المملوكية ان عادت الى التوتر اثر التجاء الامير جم ابن السلطان محمد الفاتح الى السلطان قايتباي بعد ان استتب امر السلطنة العثمانية للسلطان بايزيد ابن السلطان الفاتح ، وقد تعمد قايتباي ان يبالغ في اكرام الامير جم لتدعيم مركزه السياسي في العالم الاسلامي .

وقد بلغ توتر العلاقات العثمانية المملوكية مداه في عهد السلطان سليم الأول الملقب بياووز ، اي القاطع . ففي الوقت الذي كان فيه السلطان سليم قد عقد معاهدة صلح لمدة طويلة مع دول عديدة من بينها سلطنة مصر المملوكية ، والبندقية والمجر وروسيا ، ليتفرغ للتصدي لخطر الدولة الصفوية الشيعية ، نرى بخس اقدام سلطان المماليك الجراكسة البرجية قانصوه الغوري على عقد تحالف عسكري وسياسي مع الشاه اسماعيل الصفوي ضد الدولة العثمانية ، وكان من نتيجة هذا التحالف اصطدام الجيوش العثمانية المتوجهة الى محاربة الصفويين ، بعراقيل عديدة اثناء اجتيازها للمناطق التي تخضع لسيطرة دولة المماليك الشراكسة البرجية . ولم يقف استفزاز المماليك للعثمانيين عند هذا الحد بل صعد المماليك استفزازهم بسماحهم لوفد الشاه اسماعيل الصفوي بالمرور من الأراضي التي يسيطرون عليها في طريقهم الى البندقية لطلب المساعدة ضد العثمانيين .

وحين حقق العثمانيون نصرا حاسما ضد الدولة الصفوية الشيعية ، ورفعوا الراية العثمانية الاسلامية

نوف البلاد التي كانت تخضع لحكم الصفويين ولهم العراق . تقلص نفوذ الراية الصفوية الشيعية وخاصة في البلاد العربية . ولم يبق في أفق العالم الاسلامي غير الرايتين العثمانية والمملوكية . وكان استمرار هذه الازدواجية يعني استمرار حالة التشرذم الاسلامي . وكان من الطبيعي ان يدرك المسلمون أن وحدتهم التي ينشدونها لن تتحقق الا اذا طويت احدى هاتين الرايتين . وكان لا بد للاصلح ، والاقوى ، ان يغلب . فانخفضت راية الدولة المملوكية ، وأصبح سماء العالم الاسلامي حكرا لراية واحدة هي راية الدولة العثمانية الاسلامية ، بعد ان حسمت الجيوش العثمانية معركة بلاد الشام في مرج دابق التي اسفرت عن مقتل السلطان المملوكي قانصوه الغوري في يوم الاحد ٢٥ رجب من عام ٩٢٢هـ (٢٤ آب ١٥١٦م) ، ثم معركة مصر في ٨ محرم من عام ٩٢٣هـ (٢٦ كانون ثاني ١٥١٨م) .

والتساؤل الآن :

هل من الانصاف ان نتهم العثمانيين الاتراك بتهمة استعمار مصر والشام .. ؟

واسبارع فاجيب :

بل ان من الظلم الفادح ان نرمي الأتراك العثمانيين بهذا البهتان العظيم . اننا حين نراجع تسلسل المراحل التي مرت بها العلاقات العثمانية المملوكية نجد ان العثمانيين كانوا حريصين على توثيق علاقاتهم الاخوية الاسلامية باخوانهم المسلمين في مصر وبلاد الشام ، ولذلك حرصوا على توثيق علاقاتهم بدولة المماليك حرصا على ان يظهر الصف الاسلامي صفا موحدا في وجه المطامع الحاقدة . ولكن المماليك لم يقابلوا هذه العواطف الاسلامية الصادقة بما تفرضه مقتضيات الأخوة الاسلامية . بل عمدوا الى افتعال المشاكل لاستفزاز الدولة العثمانية . وبلغ بهم الأمر الى درجة المجاهرة بالعداء للعثمانيين . والدخول في احلاف مع اعدائهم ، تارة مع حسن الطويل . واخرى مع البنادقة . واخيراً مع الصفويين الشيعة . ولم يتركوا مناسبة يتدخلون فيها في شؤون الدولة العثمانية الداخلية الا وانتهزوها، فطفقوا يحتضنون المعارضين للدولة ، ويمدونهم بالمساعدة ، بل بلغ بهم الأمر الى حد الهجوم على بعض المناطق الخاضعة للدولة العثمانية ، واعدام حاكميها

شقيق زوجة السلطان محمد الفاتح ، وتعليق رأسه في باب زويلة في القاهرة .

ان العثمانيين الأتراك لم يفتعلوا المشكلات لكي ضد دولة المماليك ، بل ان المماليك هم الذين كانوا يفتعلون المشكلات .

وان العثمانيين لم تكن لهم نوايا ظاهرة ، ولا مستترة ، ضد دولة المماليك ، بينما ثبت بأكثر من دليل سوء نية المماليك ازاء الدولة العثمانية ، ولقد توالت الروايات ، ومنها ما ذكره الدكتور عبد العزيز سليمان نوار في كتابه «الشعوب الاسلامية» ، تؤكد ان السلطان سليم لم يكن مصرا على اكمال زحفه على مصر بعد انتصاره على السلطان قانصوه الغوري في معركة مرج دابق ، وانه عرض على السلطان الجديد طومان باي ان يعلن خضوعه للدولة العثمانية في مقابل ان يسند له السلطان سليم حكم مصر ، ولكن طومان باي أصر على الحرب التي انتهت بالقضاء عليه وعلى دولته . ومن هنا نستطيع ان نجد في موقف السلطان العثماني سليم دليلا جديدا على عدم وجود النية المسبقة لدى العثمانيين لاحتلال مصر ، وانهم انما كانوا يهدفون

الى تحقيق الوحدة الاسلامية تحت راية واحدة ، ولو اى طومان باى تنازل عن غروره ورضي بعرض السلطان سليم ، لتمت الوحدة الاسلامية آنذاك بروح اخوية ، ولم يكن العثمانيون ليضطروا لتحقيقها عنوة .

ثم ، هل من الانصاف ان نلوم الأتراك العثمانيين اذا هم تصدوا للرد على محاولات المماليك للاجهاز على كيانهم السياسي بتحالفهم مع حسن الطويل ، ثم مع البنادقة ، ثم مع الصفويين .. ؟

وباى منطق يصبح توحيد المسلمين تحت راية واحدة استعمارا .. ؟

لقد كانت حال البلاد العربية قبيل ارتفاع الراية العثمانية الاسلامية فوقها ، كمثل حالها اليوم ، دويلات متشرذمة متناحرة ، هذه تمسك بخناق تلك ، وتلك تتآمر على اخرى ، والكل هدف لاطماع الطامعين .

كانت مصر والشام تحت سيطرة المماليك ، وكانت البلاد قد وصلت في أواخر عهد المماليك الى حالة بائسة من الاضطراب والفقر والظلم والتسلط ، ولم يقتصر عداء المماليك للعثمانيين على الدخول في تحالفات ضدهم

مع الصفويين . بل لقد رفضوا السماح للجيوش العثمانية بالمرور من الأراضي التي يسيطر عليها المماليك في بلاد الشام وهم في طريقهم للتصدي للجيوش الصليبية البرتغالية التي احتلت عدن ومضيق هرمز ووصلت إلى البصرة في عام ٩٢١هـ .

وكانت العراق تحت سيطرة الدولة الصفوية الإيرانية الشيعية المذهب ، وهي الدولة التي اشتط بها الحقد ضد العثمانيين إلى درجة عقد تحالف مع البرتغاليين الصليبيين ضد الدولة العثمانية .

وكانت بلاد شمال افريقيا تواجه خطر تكرر مأساة الأندلس على أراضيها . وكانت طرابلس الغرب (ليبيا) ترزح تحت سيطرة الاحتلال الاسباني الذي بدأ في عام ٩١٦هـ . ثم مدوا سيطرتهم إلى الجزائر فاستولوا على مليلة وجزيرة بينون والمرسى الكبير .

وكانت معظم موانيء مراكش (المغرب) على طول الساحل الأطلسي تحت سيطرة البرتغاليين .

أرأيتم إلى الاخطبوط حين تمتد أذرعه لتنهش في فريسته من كل جانب .. ؟

كذلك كانت حال البلاد العربية آنذاك . مثلما هي حالها اليوم - فقد كان اخطبوط الاطماع الصليبية ينشب اظفاره في كل جزء منها .

وكان من الطبيعي ان يتطلع المسلمون الى من ينقذهم من هذه المحن . فهرعوا الى دولة المماليك الشراكسة البرجية . فراعهم ان يجدوها تنظر الى الامر نظرة المتفرج . وكان الامر لا يعنيها . فقد كان العداء للعثمانيين قد أعمى بصيرتها عن الخطر الصليبي الماحق .

وكان من الطبيعي ان تتوجه انظار المسلمين نحو دولة بني عثمان التي ملأت شهرتها الآفاق باعتبارها العدو الالد للاطماع الصليبية . فتوالت الوفود الشعبية الى السلطان سليم تستنجد به لانقاذ بلاد العرب المسلمة من خطر الصليبية الجديد المتمثل بالبرتغاليين والاسبان .

أفان استجاب العثمانيون لصرخات والاستغاثة التي انطلقت من أفواه الملايين من مسلمي البلاد العربية في المشرق والمغرب . فتقدموا بجيوشهم لطرد البرتغاليين والاسبان منها . انبرى الحاقدون ليزعموا ان ذلك كان استعمارا عثمانيا . وسيطرة تركية ..؟

ونأتي الآن الى الفرية التي تزعم أن العثمانيين الأتراك مارسوا سياسة الاستبداد ضد العرب . فاننا نبرئ العثمانيين الأتراك من هذه الفرية ، بل انهم هم الذين خلصوا العرب المسلمين من الاستبداد والظلم والعنت . الذي كان يلحقه بهم رجالات دولة المماليك الشراكسة الرجعية . وكتب التاريخ التي أرخت للمماليك مليئة بالروايات المتواترة عن اشكال العنت والارهاق التي كان يتعرض لها المصريون واهل الشام من أمراء وقواد وعساكر المماليك ، وكيف كان هؤلاء يتفننون في ابتكار الاساليب الهمجية لارغام الناس على دفع الاتاوات والضرائب لهم ، ويصف الدكتور علي حسون في كتابه « تاريخ الدولة العثمانية » حالة البلاد العربية بقوله :

كانت البلاد العربية مفككة الاوصال . تحكمها دويلات صغيرة .

ويصف المؤرخ المرحوم محمد كرد علي في الجزء الثاني من كتابه «خطط الشام» حالة بلاد الشام قبيل الفتح العثماني لها بقوله :

باتت امور السلطنة العربية في كثير من الادوار بأيدي ضعاف الاحلام من اسرة ذلك الملوك ( السلطان المقيم

بمصر ) . وقد اشتد الظلم حتى قال العالم ابن الفرفور لشافعي المولوي لنائب السلطان :

لقد كثر الظلم فلو أبطلتموه كان حسنا .

فاستاء نائب السلطان المملوكي واسمع العالم الشيخ ما يكره .

ويردف محمد كرد علي قائلا :

لقد ازمنت الفوضى في ارجاء الدولة وساءت حالتها الاقتصادية والاجتماعية ، واحس الناس مما وصلت اليه الدولة (المملوكة) من ضعف فاخذوا يتطلعون الى الدولة العثمانية ، وكان الناس لا فرق عندهم اذا تسول عليهم الترك الاعاجم ، اذ لا فرق في الاسلام بين عربي واعجمي في الحقوق والواجبات ، واقصى ما يتطلبه الناس سلطان عادل عاقل .

ويستطرد محمد كرد علي قائلا :

ان ما نال السكان في أواخر حكم المماليك قد عجل بالقضاء عليهم ، وفتح قلوب السكان للسلطان سليم الاول ، وخدمه كثير من اهل الشام قبل مجيئه ، فكانوا

يزودونه بالاخبار ويطلعونه على مواطن الضعف عند المماليك . وحين انتصر بنو عثمان لم يبق من المماليك الا من كانوا يتمتعون بخبراتهم . واصبحت الشام بالفتح العثماني آمنة من غزوات الشمال والشرق والجنوب .

اما العثمانيون فقد حرصوا على ان يطمئن جميع الناس الى انهم يعاملون كمواطنين مسلمين في دولة مسلمة تصون كرامتهم . لا كرعايا يساقون بالسياط وتمتهن كرامتهم صباح مساء ، وتبتز أموالهم من دون حساب .

ويذكر الدكتور علي حسون في هذا الصدد في كتابه « تاريخ الدولة العثمانية » (ص ٥٩) ان السلطان سليم ومن بعده السلطان سليمان القانوني كانا يهدفان الى جعل البلاد العربية جزءا من الكيان العثماني (الاسلامي) الواحد . وانهما حرصا على منع اية اجراءات من شأنها المساس بالعرب . وان العلماء المسلمين من العرب كانوا يتمتعون بسلطات واسعة . وانهم كانوا على اتصال مباشر بالعاصمة استانبول .

ويذكر الدكتور احسان حقي في تعليقاته على كتاب « تاريخ الدولة العلية العثمانية » الذي ألفه المرحوم

محمد فريد بك المحامي ، ان الأتراك كانوا لا يفرقون بين مسلم ومسلم مهما كان انتماؤه العرقي والقومي ، وان العرب كانوا شركاء للاتراك في الحكم ، وان اللغة العربية كانت اللغة الرسمية المستعملة فى البلاد العربية في القضاء والادارة *

ويردف الدكتور احسان حقي قائلا :

لقد ظلمنا العثمانيين اذ سميناهم مستعمرين ونحن منهم ، وظلمناهم اذ قلنا انهم مخربون ونحن منهم ، وظلمناهم اذ قلنا انهم اساؤوا الى البلاد ونحن منهم *

ويذكر الاستاذ محمد جميل بيهم في كتابه « العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب » ان حالة البلاد العربية قبيل الفتح العثماني كانت قد وصلت الى اشد درجات السوء ، وان العالم الاسلامي كان يتطلع الى منقذ ينقذه من الهاوية التي سقط فيها ، فلما خرج آل عثمان الى ميدان الكفاح وظهرت بوادر نجاحهم في حروبهم ضد الامبراطورية البيزنطية ، علق المسلمون عليهم الآمال ، واتجهوا بقلوبهم اليهم . فالعالم الاسلامي الذي كان قد استولى عليه اليأس من جراء الكوارث

التي حاقت به في الشرق والغرب . شعر اثر هذه الانتصارات التي احرزها العثمانيون ، سواء في البر او البحر ، بحياة جديدة ردت اليهم الآمال ، ورفعت رؤوسهم كرة اخرى .

ويستطرد الاستاذ محمد جميل بيهم ، فيشير الى ان العثمانيين الاتراك قد خلفوا العرب في رفع راية الاسلام ، وان المسلمين الذين كانوا فريسة لغزاة الشرق والغرب ، وجدوا في آل عثمان ذلك المنقذ الذي كانوا يترقبونه ، بل وجدوا فيهم أكثر من هذا امبراطورية استعادت كرامتهم ، ورفعت رايتهم كرة أخرى فوق الذروة التي كانت تخفق عليها في الأمس القريب .

ويذكر الدكتور عبد العزيز سليمان نوار في كتابه « الشعوب الاسلامية » ، ان فتح العثمانيين للمشرق العربي ( مصر وبلاد الشام والعراق والحجاز واليمن ) كان سهلا وسريعا بعكس فتوحاتهم في البلقان وفارس ، وحين نحاول تفسير مقولة الدكتور نوار نجد ان التفسير المنطقي لسهولة الفتح العثماني في المشرق العربي يرجع الى ان سكان المشرق العربي وكلهم مسلمون كانوا لا يرون في العثمانيين عدواً تنبغي محاربته ، ولذلك

كانت استجابتهم للمماليك فاترة . فلم يلتحقوا بأعداد كبيرة في الجيوش المملوكية ، مما سهل على العثمانيين الانتصار على الجيوش المملوكية الرسمية .

ويردف الدكتور عبد العزيز سليمان نوار موضحاً الدور الجليل الذي لعبه العثمانيون في ابعاد الخطر الصليبي البرتغالي الحبشي عن الأراضي المقدسة ، فيقول :

لقد كسب الحجاز كثيرا من وراء ذلك الارتباط السريع بالدولة العثمانية . فقد كانت حملات البرتغاليين على البحر الأحمر متتالية وبلغت حدتها في عام ١٥١٧م حتى وصلت الى جدة بالذات . فقام العثمانيون بارسال قوات حمتها من تكرار العدوان البرتغالي .

ومن ناحية اخرى كان ارسال العثمانيين حملاتهم الى اليمن ومساعداتهم لامارة «عدل» الاسلامية ضد الحلف البرتغالي الحبشي ، سبباً في ابعاد الخطر الصليبي عن الأراضي المقدسة الاسلامية .

واذا كنا نلوم العثمانيين في انهم فشلوا في تجميع قلوب أهل اليمن حول الحكم العثماني ، فان اللوم

يجب ان يوجه الى ائمة اليمن انفسهم من حيث انهم بذلوا في ادوائل ان القوات العثمانية لم تأت الى اليمن ابتغاء الكسب المادي منه . وانما ابتغاء الدفاع عن بلاد المسلمين عامة واليمن بصفة خاصة . ولقد اثبتت سيطرة العثمانيين على شواطئ الخليج العربي ، انهم كانوا يقومون بدور الدولة الاسلامية العامة المسؤولة عن الدفاع عن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . ومثلما بذل العثمانيون جهودا بحرية كبيرة في المياه الجنوبية ضد البرتغاليين . فانهم بذلوا جهوداً مثلها في شمال افريقيا ضد الاسبان .

ولكي ندرك اهمية هذه الشهادة التي اوردها الدكتور نوار . ينبغي ان نشير الى أن الخطر البرتغالي والاسباني لم يكن خطرا عابرا . وانما كان خطرا ماحقا كاد يعصف بمشرق الوطن العربي ومغربه لولا ان الله عز وجل ساق العثمانيين الاتراك للتصدي له .

فالبرتغاليون . اندفعوا الى المياه الجنوبية الاسلامية وهم يحملون فكرا صليبيا راسخا ، تؤججه احقاد قرون طويلة كان سكان شبه جزيرة ايبريا ( اسبانيا والبرتغال ) يضمرونها ضد الاسلام والمسلمين ، وكان

بابوات روما يؤججون هذه الأحقاد الصليبية في قلوب البرتغاليين . وما زالوا يشجعونهم على تصعيد حملاتهم ضد السواحل الاسلامية ، حتى اصبح البرتغاليون لا يتورعون عن المجاهرة بأن تدمير المقدسات الاسلامية في الحجاز يأتي في مقدمة اهدافهم .

أما الخطر الاسباني ، فقد كان مثلاً آخر للحقد الصليبي ضد الاسلام والمسلمين ، وزاد من حدة خطورة الخطر الاسباني ، أن نشوة نصرهم ضد المسلمين في الاندلس ، قد اغرتهم بتوسيع نطاق نشاطاتهم الحربية الى شمال افريقيا لاجتثاث المسلمين منها كما فعلوا في الاندلس .

ويؤكد الدكتور عبد الكريم غرايبة في كتابه « العرب والاتراك » حقيقة الدور الرائع الذي لعبه الاتراك العثمانيون في حماية البلاد العربية من الخطر الصليبي، فيقول :

يحتل العثمانيون الاتراك مركزاً فريداً في تاريخ العرب لا تحتل مثله اية دولة اخرى في التاريخ ، وعندما عجز المماليك عن حماية العالم العربي من البرتغاليين

والاسبان والصفويين الشيعة ، تدخل العثمانيون كحماة ومحررين . ورحب العرب ، ولا سيما في بر الشام بقدوم العثمانيين ، ونظروا اليهم كمنقذين . ونجح العثمانيون في حماية العالم العربي من اعدائه الخارجيين اكثر من ثلاثة قرون ، وتمكنوا من منع الكماشة الافرنجية ( البرتغالية الاسبانية الجرمانية ) من الاطباق على العالم العربي .

وبعـــد ...

فلعلي اكون قد اقمت الدليل على بطلان الفرية التي تزعم ان الاتراك العثمانيين كانوا مستعمرين ومستبدين للبلاد العربية .

ولعل الايدي الحريصة على الحق والحقيقة تمتد الى كتب التاريخ التي ما زالت اجيالنا تقرأ فيها هذه الفرية الظالمة ، فتزيلها منها ، وتستبدلها بالحقيقة الناصعة التي تؤكد ان العثمانيين الاتراك لم يستعمروا البلاد العربية ، ولكنهم اعادوا اليها لحمة الوحدة الحقيقية تحت راية الاسلام ، وحموها من اخطار الاحقاد الصليبية ، برتغالية واسبانية وبابوية ، وان العثمانيين

الاتراك لم يستبدوا بالشعوب العربية ، وانما تآخوا معها تحت ظلال الاسلام .

وعلى الذين يجاهرون بفرحتهم بزوال ما يطلقون عليه بهتانا وظلما « الاستبداد العثماني » ، ان يقارنوا حالنا اليوم ، بحالنا بالأمس يوم كنا جزءاً من الدولة العثمانية، واني لاكاد اجزم انهم لو فعلوا ذلك ، لترحموا على ايام « الاستبداد العثماني » ، ولتمنوا عودتها ، الا اذا كانوا يظنون ان وجود بضع وعشرين راية في سماء وطننا العربي افضل من وجود راية واحدة ، والا اذا كانوا يظنون ان ضياع فلسطين افضل من بقائها ، والا اذا كانوا يعتقدون ان الانتظار على مراكز الحدود التي تحول بين المواطن العربي وبين اخوانه الآخرين امر يبعث على البهجة والسعادة ، والا اذا كانوا يظنون ان وجود اضبارة لكل مواطن عربي في دهاليز المخابرات امر يشعر المواطن العربي بالاطمئنان على مستقبله ومستقبل عائلته ، والا اذا كانوا يعتقدون ان علاقاتنا بالانجليز والأمريكان قد جلبت لنا العسل واللبن ، والعزة والكرامة ، والحرية والتقدم ، التي حرمنا منها العثمانيون الاتراك .. ؟؟

## الجيش العثماني

# لم يكن جيشاً انكشاريا تشكل من أطفال النصارى ، بل كان جيشاً اسلامياً ، قوامه أبطال الاسلام

من أخبث الافتراءات التي ألصقتها الأحقاد الصليبية اليهودية بالأتراك العثمانيين المسلمين . تلك الفرية التي تزعم أن العثمانيين كانوا ينتزعون أطفال النصارى من أحضان آبائهم وأمهاتهم . ليكرهوهم على اعتناق الاسلام، ثم يلحقونهم بالجيش العثماني .

وقد تبنى هذه الفرية اللئيمة معظم المؤرخين الأجانب . وأذكر منهم كارل بروكلمان ، وجيبونز ، وجب ، وسومرفيل ، ومورد تميل .

وتزعم الفرية أن العثمانيين كانوا ينتزعون أطفال النصارى من بين أهاليهم ويجبرونهم على اعتناق الاسلام . بموجب نظام أو قانون زعموا أنه كان يدعى بنظام «الدفشرمة» ، وزعموا أن هذا النظام كان يستند الى ضريبة اسلامية شرعية أطلقوا عليها اسم « ضريبة الغلمان » ، وأسموها أحياناً « ضريبة الأبناء » ، ومن

ضريبة زعموا انها تبيح للمسلمين العثمانيين أن ينتزعوا خمس عدد اطفال كل مدينة أو قرية نصرانية ، باعتبارهم خمس الغنائم التي هي حصة بيت مال المسلمين .

وينقل كارل بروكلمان في كتابه تاريخ الشعوب الاسلامية ( العثمانيون الأتراك وحضارتهم ) ، تفاصيل عن ضريبة الغلمان المزعومة فيقول :

ان ضريبة الغلمان كانت تجمع كل خمس سنوات ثم تقاصرت المدة في ما بعد حتى صارت تجمع آخر الأمر مرة كل سنة . وكان الاختيار يقع في بادىء الأمر على غلام واحد من كل خمسة غلمان ، ثم صارت الدولة تنتزع فيما بعد جميع الغلمان السليمي البنية ممن تتراوح أعمارهم بين العاشرة والخامسة عشر .

ويزعم بروكلمان ان الموظفين العثمانيين كانــوا يأخذون الرشاوى من آباء الغلمان الاثرياء ليتركوا لهم أبناءهم ويعود بروكلمان ليؤكد ان ضريبة الغلمان على ما كانت عليه من قسوة لم تولّد لدى الآباء الذين كان ابناؤهم ينتزعون منهم مصدر قلق ، أو الم كبيرين بسبب ما كان هؤلاء الآباء يؤملونه لأبنائهم من مستقبل باهر في انضمامهم الى الجيش الجديد .

كلام يهدم بعضه بعضاً .

اذا . ما دام ان الآباء لم يكونوا يجدون في التحاق ابنائهم بالجيش الجديد مصدر قلق ، بل يجدون في ذلك مصدر امل بمستقبل باهر لأبنائهم ، فلماذا يدفعون الرشاوى ، ليحولوا بين أبنائهم وبين ذلك المستقبل الباهر الذي ينتظرهم ..؟!

على ان الأمر الذي يبعث على الدهشة والعجب ، انك لا تقرأ في أي مصدر من تلك المصادر التي تنفث مثل هذه المزاعم وتتحدث عن ضريبة الغلمان أو عن فرية اكراه النصارى على الاسلام ، الا ويتولد لديك انطباع ان هذه المزاعم هي من صياغة مؤلف المصدر نفسه ، فكل واحد منهم ينفث الفرية بمعلومات تختلف عن المعلومات التي تنفثها المصادر الأخرى ، وتزداد الدهشة انك لا تجد اي مصدر من هذه المصادر يسند روايته باي سند تاريخي ، كان يذكر اسم المصدر الذي نقل عنه مزاعمه سواء كان كتابا أو مخطوطة أو مؤرخا معينا ، ويزداد العجب أن هؤلاء الزاعمين لا يقدمون بين يدي مزاعمهم أية نصوص من مواد تلك الضريبة الغريبة العجيبة التي يطلقون عليها اسم ضريبة الغلمان ، ولا يشيرون الى اسم واضعها ، ولا الى تاريخ وضعها عما

يؤكد بطلان هذه المزاعم ، وبراءة العثمانيين المسلمين من وزرها ٠

واجدني هنا مضطرا للتوقف قليلا عند عبارة وردت على لسان كارل بروكلمان وهو يتحدث عن معاملة العثمانيين للغلمان النصارى الذين يزعم أنهم كانوا ينتزعون من بيوت آبائهم بوحشية ويكرهون على ترك معتقداتهم ويجبرون على اعتناق الاسلام ٠

يقول بروكلمان بالحرف الواحد :

وكان الغلمان يصنفون أصنافا خمسة ( لا يذكر شيئا عن حدود هذه الأصناف الخمسة أو مواصفاتها )، وكان تدريبهم يلتزم المبادىء الانسانية الى أبعد الحدود ، على الرغم من صرامته ٠

عجبا . كيف يجتمع الضدان في شيء واحد . كيف يكون العثمانيون المسلمون في غاية الانسانية تارة ، ثم يكونون في غاية الوحشية تارة اخرى في نظر بروكلمان ٠٠ ؟!

الا ما أشد جرأة هؤلاء على الباطل ، ولكأني بالذي وضع المثل القائل ( رمتني بدائها وانسلت ) ما أراد

يطلقه هذا الا هؤلاء الحاقدين من أعداء الاسلام ، الذين يتناسون مجازرهم التي أوقعوها بالمسلمين . ليرموا المسلمين العثمانيين بهذا البهتان العظيم . وهم أول من يعلم ان اهالي المدن البيزنطية التي فتحها الله على المسلمين العثمانيين كانوا يعتبرون المسلمين مخلصين ومنقذين لهم من البيزنطيين وفسادهم .

اما كلمة «دوفشرمة» ، فهي كلمة تركية تكتب باللغة التركية Dosorme ، دوشرمة وكانت تكتب في السابق دوفشرمة بزيادة الفاء ، ولكن الأصح أن تكتب بدون الفاء . وهي تعني في اللغة التركية الاسقاط او السقوط، وتطلق عادة على المواليد حديثي الولادة الذين تجهض بهم امهاتهم فيخرجون الى الدنيا امواتا ، او على الذين تلدهم امهاتهم سرا ، ثم يقذفون في الطرقات أو على أبواب الملاجىء ، ثم انسحبت هذه الكلمة على كل طفل لقيط او مشرد لأي سبب من الأسباب .

وفي بلاد العرب يجري اللسان كثيرا بهذه الكلمة فيقال « رجل داشر » ، يراد به الرجل الذي لا يعرف له ولي امر يرجع اليه في شؤونه ، ويقال « امرأة

واسرة » ، يراد بها المرأة التي لا يعرف لها ولي امر يرجع اليه في شؤونها .

ويزعم مفترو هذه الفرية أن نظام الدوشرمة كان يستند كما ذكرت قبل قليل ، الى ضريبة غريبة من نوعها . زعموا أن السلاطين العثمانيين فرضوها على نصارى المدن البيزنطية المفتوحة واطلقوا عليها اسم ضريبة الأبناء أو الغلمان . وزعموا أن هذه الضريبة كانت تمثل حصة بيت مال المسلمين من غنائم المدن المفتوحة ، بمعدل خمس عدد اطفال كل مدينة .

ويستمر مطلقو هذه الفرية في هرائهم ، فيزعمون أن السلطان كان يرسل وكيلا الى كل مدينة وقرية نصرانية ، ويطلب من قسيسها كشفا بأسماء الأطفال الذين قام بتعميدهم . فيختار الوكيل من بينهم عددا يعادل خمس مجموعهم الكلي ، ممن تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشرة . ثم ينقل هؤلاء الأطفال الى العاصمة حيث تنقطع الصلة نهائيا بينهم وبين ذويهم .

ويمضي المفترون في هذيانهم فيزعمون أن هؤلاء الأولاد كانوا يكرهون على التحول الى الاسلام ، بمجرد

وصولهم الى العاصمة ، ويجرى ختانهم ، ثم يلتحقون بمدارس خاصة زعم بروكلمان انها كانت اربع مدارس احداها في السرايا القديمة في استانبول والاخرى في السرايا الجديدة في استانبول ، علما بأن استانبول لم تكن قد فتحت للمسلمين في زمن السلطان اورخان والسلطان مراد وهما اللذان تزعم الفرية ان احدهما هو الذي ابتدع ضريبة الغلمان . والثالثة في ادرنة والرابعة في بيزة . يتعلمون فيها مبادىء الاسلام واللغة التركية ، والتاريخ الاسلامي العام ، والتاريخ العثماني والنظم العثمانية ، وفق مناهج وضعت خصيصا لتمحو كل اثر من آثار اصولهم وعواطفهم النصرانية الاولى ..

والحقيقة ، ان نظام الدشرمة المزعوم ليس سوى فرية « دست » على تاريخ مراد بن أورخان وانسحبت من بعده على العثمانيين قاطبة . فلم يكن نظام الدشرمة هذا كما يزعم الحاقدون لارغام النصارى على الاسلام ، وانما كان نظاما انسانيا اخذت الدولة على عاتقها بموجبه مسؤولية رعاية اللقطاء والمشردين من الاطفال النصارى الذين تركتهم الحروب المستمرة ايتاما او مشردين .

فالإسلام الذي يدين به العثمانيون ، ويحترمونه ، ويستهدونه في شؤونهم ، يرفض رفضاً قاطعاً تلك الطريقة غير الإنسانية في انتزاع الأطفال من أحضان آبائهم وأمهاتهم ، وقطع أية صلة لهم بهم . وليس في الإسلام ذكر لهذه الضريبة العجيبة الغريبة التي يسمونها ضريبة الغلمان ، الا سماء ما يفترون .

ولو أننا عدنا الى دراسة ظروف الفتح الإسلامي العثماني للمدن البيزنطية ، فإننا سنرى أن عدداً كبيراً من الأطفال فقدوا آباءهم وأمهاتهم نتيجة موتهم في المعارك التي وقعت بين المسلمين والبيزنطيين ، أو في أثناء هرب آبائهم وأمهاتهم ، وهو أمر يحدث في كل حرب .

ولم يكن غريباً أن يحيط المسلمون ، بما عرف عنهم من سماحة وشفقة ، أولئك الأطفال اليتامى والمشردين الذين هاموا في طرقات المدن المفتوحة بعد فقدانهم لآبائهم وأمهاتهم . ولا عجب اذن أن يسعى المسلمون لاحتضان هؤلاء الأطفال وتأمين مستقبل كريم لهم . وهل من مستقبل كريم وآمن الا في الإسلام .

أفلأن حرص المسلمون على أن يعتنق الأطفال المشردون التائهون الإسلام ، انبرى المفترون يزعمون

أن المسلمين كانوا ينتزعونهم من احضان آبائهم وامهاتهم ؟؟ ويكرهونهم على الاسلام ؟؟

من هنا جاءت فرية ما يسمى بنظام «الدشرمة» .

فلقد راع الحاقدين ان يرعى المسلمون العثمانيون هؤلاء الاطفال التائهين المتشردين ويسبغون عليهم حنان الاسلام وسماحة الاسلام ويلحقونهم بركب الاسلام .

لقد هالهم ذلك ، واعمى بصائرهم ، وفجر براكين الحقد في صدورهم فلم يجدوا طريقة ينفثون بها حقدهم، الا في اطلاق هذه الفرية ، والصاقها تارة بأورخان بن عثمان وتارة بمراد بن أورخان ، ومن بعدهما بالعثمانيين قاطبـــة .

ومن العجب الذي يبعث على الاسى أن هذه الفرية الحاقدة ، وهذا البهتان اللئيم ما فتىء أبناء المسلمين يتلقونه في مدارسهم وجامعاتهم ، وكأنه أمر مسلم به لا يرقاه شك .

ولكم يشتد الأسى في نفس المسلم ويتعاظم ، حين يكتشف أن هذه الفرية ، لا بل هذا البهتان العظيم اللئيم ، قد انطلى على العديد من المؤرخين المسلمين ، وبعضهم يشهد له بالغيرة على الاسلام ، ولا نزكي على

الله إلها، فطفقوا، وما برحوا حتى يومنا هذا، يرددون هذا البهتان في مؤلفاتهم.

فالمؤرخ المسلم محمد فريد بك المحامي، يزعم في كتابه «تاريخ الدولة العلية العثمانية» أن السلطان «كان يأخذ الشبان من أسرى الحرب النصارى ويفصلهم عن كل ما يذكرهم بأصلهم وجنسهم ويربيهم تربية اسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون أبا الا السلطان، ولا حرفة غير الجهاد في سبيل الله».

ويزعم الدكتور علي حسون في كتابه «تاريخ الدولة العثمانية»، أن هذا الجيش الجديد قد تكون «من أبناء الدول الأوروبية المفتوحة الذين دربوا عسكرياً ولقنوا الاسلام منذ الطفولة في رعاية السلطان العثماني حيث كان هو المختص بهم».

ويزعم المؤرخ المسلم محمد كرد علي في كتابه «خطط الشام»، أن الجيش الجديد «تشكل من أولاد المسيحيين (النصارى) من الرعايا العثمانيين كالبوشناق والروم والصرب والبلغار والألبان، بحسب اللزوم، وبموجب قانون التجنيد المعروف عندهم بقانون الـ «دوشرمة»، وذلك من أهل الروم ايلي ومن سكان

الأسطول على قلة ، ويعفى من ذلك الأرمن وسكان جزيرتي ساقز ورودس ، ويأخذونهم من أهليهم في سن العاشرة الى الخامسة عشرة ، ويربونهم تربية اسلامية ثم يجعلونهم في التكنات في الأستانة » .

وينقل المؤرخ المسلم عمر عبد العزيز هذه الفرية في كتابه « محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية » الذي يدرس في بعض الجامعات العربية .

ومن المؤسف أن مثل هذه الروايات رغم ما بينها من تناقض ، وما فيها من ضعف سنبينه بعد قليل ، وعلى الرغم من أن أياً من الذين تناقلوها في مؤلفاتهم لم يسندها بسند تاريخي موثق ، فانها قد انطلت على معظم المؤرخين العرب والمسلمين ، وتناقلتها مؤلفاتهم ، وما فتئت أجيالنا العربية المسلمة تتلقى هذه الفرية في مدارسها ، ومعاهدها ، وجامعاتها ، وكأنها يقين لا يرقى اليه شك ، وما هي في حقيقة الأمر الا بهتان نفثته الأحقاد المعادية للاسلام ، فتلقفه معظم المؤرخين العرب والمسلمين ، ولا أحسب الا أن هؤلاء قد نقلوا ما ذكروه من غير تمحيص ، عن مصادر لا يحسب واضعوها للاسلام أي حساب ، بل وربما كانوا من المؤرخين الذين

يقصدون الاساءة للاسلام عن طريق الطعن في العثمانيين والافتراء على تاريخهم .

ولقد ما آلمني أن اجد المؤرخ المسلم الغيور محمد كرد علي رحمه الله . في كتابه « خطط الشام » ، يتجنى هذه الفرية من غير تردد وكأنها يقين لا يرقى اليه شك ، ويشتد الأسى ويتعاظم ، حين نراه رحمه الله يتهم العثمانيين صراحة بمخالفة الشريعة الاسلامية اذ يقـــول :

« اسس العثمانيون جيش الانكشارية ( الجيش الجديد ) على غير مثال في التاريخ ، وخالفوا فيه الشريعة الاسلامية التي لا تجيز للملك أن يكره الذميين على استرقاق اولادهم » .

ويتابع الأسى مشواره حين يتبنى رحمه الله رأي المؤرخ النصراني هوردمان ، الذي يزعم فيه أن الجيش الجديد بما يدخل اليه الوهن ، ويتسرب اليه الفساد ، بسبب تساهل السلاطين في السماح ، بادخال اناس من المسلمين ، واليهود ، والتتر الى الجيش الجديد .

واسفاه ، واسفاه ، واأسفاه .

كيف يرضى المؤرخ المسلم الغيور محمد كرد علي رحمه الله أن يقرن المسلمون مع اليهود والتور في مقام واحد ..؟

ونعود الى الرواية الأولى ، رواية الاستاذ محمد فريد بك ، فنجد انها تحمل بين طياتها أدلة بطلانها . فنحن اذا عدنا قليلا الى زمن عثمان ، ثم انتقلنا الى زمن اورخان ، فاننا سنجد أن المدن البيزنطية التي منحها الله عليهما ، كان بعضها يفتح بدون قتال بسبب تقبل اهلها للاسلام ، او بسبب فرار حاكمها وحاميتها ، فيدخلها المسلمون ويقيمون العدل بين اهلها ، فيجد فيهم الناس مخلصا لهم مما كانوا يقاسونه من ظلم الحكم البيزنطي ، ثم لا يلبث اكثرهم حتى يسلموا ، وان بعضها كانت تقبل ان تدفع الجزية وهي قليلة ، وان بعضها كانت تختار الحرب ، فيفتحها الله على المسلمين بعد قتال .

ولقد تواترت الروايات الكثيرة تؤكد ان عثمان ومن بعده أورخان ، كانا يتركان للبيزنطيين الذين يؤثرون البقاء على دينهم ، سواء فتحت مدنهم سلما أو حربا ، حرية الاختيار بين البقاء في تلك المدن متمتعين

بحريتهم الدينية والشخصية ، او الهجرة الى داخل اراضي الدولة البيزنطية حاملين معهم ما يشاؤون من مال ومتاع من دون أية قيود ، ومن هذه الروايات اذكر على سبيل المثال لا الحصر ما اوردته الموسوعة اليونانية الشهيرة(Megalia Elliniki Engiklopedia)في صفحتها رقم ٢٧٦ من مجلدها الثامن •

كما ان عثمان واورخان لم يكن من سياستهما أخذ أسرى حرب • وفي الحالات القليلة التي حدث فيها مثل هذا ، فان عدد الأسرى لم يكن كبيراً ، وكان معظمهم يدخل في الاسلام ليتخلص من الأسر ، فيتعهدهم العلماء بالتربية الاسلامية ، وكان اكثرهم يحسن اسلامهم ويستفيدون عن ايمان وصدق على الاسلام ، ونذكر على سبيل المثال الامير خوسيه ميخائيل ، والأمير افريبوس حاكم بورصة البيزنطي ، اللذين اصبحا فيما بعد من مشاهير القادة في الدولة العثمانية بعد ان هداهما الله الى الاسلام وحسن اسلامهما •

وينبغي ان اشير الى انه على عكس ما يزعمه الحاقدون من ان العثمانيين كانوا ينتزعون أطفال النصارى ويجبرونهم على اعتناق الاسلام ، كان الاهالي

البيزنطيون يقومون بأنفسهم بتقديم أطفالهم الى السلطان العثماني لتربيتهم تربية اسلامية . وفي هذا الصدد يذكر الاستاذ عمر عبد العزيز عمر في كتابه « محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية » أن العديد من المؤرخين النصارى يعترفون ان الآباء البيزنطيين كانوا يتشوقون الى تقديم ابنائهم عن طواعية للسلطان العثماني لتربيتهم تربية اسلامية .

ومن هنا فان مقولة ان اورخان كان يأخذ الشبان من اسرى النصارى ليجبرهم قسرا على الاسلام ، لا تستند الى بينة قوية .

ثم كيف يستطيع القول ان الاسرى كانوا يخضعون لعملية فصل كاملة عن بيئتهم السابقة لتنقطع كل صلة لهم بها ؟ .. ثم يقال أنهم من الشبان ، أي أنهم في مرحلة من النضج والادراك لا يمكن لأية وسيلة ان تنجح في اجبارهم على نسيان أهليهم ومعتقداتهم الدينية والسياسية حتى لو تظاهروا بذلك .

اما الروايتان الثانية والثالثة ، روايتا الدكتور علي حسون ، والاستاذ محمد كرد علي فدليل بطلانهما ان

بأمير علاء الدين ، الأخ الأكبر لأورخان ، والذي كان يتولى مسؤولية الصدر الأعظم أى رئاسة الوزراء ، قد أشار على أخيه أورخان بفكرة الجيش الجديد وقد توفى علاء الدين عام ٧٣٥هـ ــ ١٣٣٥م . ونحن نعلم أن أورخان لم يسيطر على أية أرض بيزنطية داخل الحدود الأوربية الا فى عام ٧٥٥هـ ــ ١٣٥٤م عندما استولى على غاليبولى وجيمنك وغيرهما من المدن والقلاع البيزنطية .

من هنا تسقط مقولة ان الجيش الجديد كان من أبناء أسرى البلاد الأوربية المفتوحة ، لأنها لم تكن مفتوحة عند تشكيل الجيش الجديد .

أما اذا قصدت الرواية بالبلاد الأوربية تلك القلاع والمدن البيزنطية داخل آسيا الصغرى . فما قلناه فى تفنيد صحة الرواية الأولى يصلح هنا لتفنيد هذا الادعاء .

واذا كان أورخان يختار الأطفال الصغار لجيشه الجديد فمعنى ذلك أن اعدادهم للقتال سيأخذ سنوات طويلة . فلو افترضنا أن معدل أعمارهم عشر سنوات فانهم سيحتاجون الى عشر سنوات أخرى لاعدادهم ليكونوا قادرين على القتال . فاذا علمنا أن أورخان قد

استعان في حروبه بهذا الجيش الذي كان قوامه عند بداية تأسيسه ألف جندي ، بمجرد الفراغ من تأسيسه وتنظيمه ، تأكد لنا بطلان مقولة أن الجيش الجديد « قد تكوّن من أطفال النصارى » .

وهناك رواية تبناها مؤرخ مسلم آثرت أن أفصلها عن الروايات السابقة آنفة الذكر لأسباب ثلاثة :

**الأول** : أنها اشتطت كثيراً وأغلظت القول بحق العثمانيين الأتراك ، بصورة لم نألفها في الروايات الأخرى المماثلـــة .

**الثاني** : أنها وردت في كتاب قيل إنه ينصف الأتراك العثمانيين ، باعتبار أن تاريخهم وتاريخنا العربي هما فصلان من كتاب واحد في تاريخ العرب والمسلمين .

**الثالث** : أن مؤلف الكتاب مؤرخ مسلم ، وأستاذ جامعي أيضاً ، له باع طويل ، وخبرة ذائعة في تدريس التاريخ الإسلامي في العديد من الجامعات العربية العريقة والحديثة .

وقد وردت هذه الرواية في كتاب الدكتور عبد الكريم غرايبة المعنون بـ « العرب والأتراك » ، الذي طبعته جامعة دمشق في عام ١٣٨١هـ – ١٩٦١م .

تقول الرواية :

لقد شعر السلطان ( لم تحدد الرواية اسمه ) انه بحاجة الى «كلاب» لتحرس قطعانه أو رعيته . وتغير على قطعان غيره . فلم يجد أمامه من وسيلة الا أن «يصادر الانسان» ويدجنه . ويدربه . كما يفعل مع الحيوان . ودون أن يدع العاطفة تفسد عليه عمله وخططـــه .

ثم يكرر الدكتور غرايبه هذا الكلام في موضع آخر من كتابه بعبارات أخرى فيقول : وأخيرا ابتدع أحدهم .. ( لم يحدد من المقصود بكلمة أحدهم ) فكرة مصادرة أولاد النصارى . وتدجينهم . وتأسيس جيش محترف منهم لا يدين بالولاء الا للسلطان .

ويمضي الدكتور في روايته قائلا :

كان السلطان ( من غير تحديد الاسم ) يرسل كل عام اشخاصا أو هيئة مدربة على فهم الانسان وتقدير مكانه .. لتصادر العدد المطلوب من الدواجن البشرية ليدربوا تربية قاسية اسلامية . ودون أن يفرض عليهم اعتناق الاسلام .

وقبل أن نشرع في نقضنا هذه الرواية ينبغي أن نشير الى أن الدكتور الغرايبة ينسبها الى المؤرخ المستشرق «جب» الذي لا يمكن في نظري الاطمئنان الى سلامة نواياه تجاه الاسلام وتاريخ الاسلام . ثم الى المؤرخ النصراني «سوموفيل» . الذي يبقى الشك في سلامة نواياه اسلم في نظري من حسن الظن بها . ثم الى المؤرخ المسلم الغيور امير البيان شكيب ارسلان . من كتابه « تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا والبحر المتوسط » . واني لأخشى أن يكون امير البيان قد نقل ما نقله عنه الدكتور الغرايبة عن «جب» . او عن غيره من المؤرخين الذين هم موضع اتهام من جهة نواياهم تجاه الاسلام وتاريخ الاسلام . ولقد حاولت جهدي ان اظفر بكتاب امير البيان لاستوثق من الامر . فما ظفرت به *.

واعود الى رواية الدكتور الغرايبة . فأسارع . بادىء ذي بدء بالتساؤل :

أين التوثيق العلمي التاريخي في هذه الرواية التي تحمل تهمة خطيرة بحق الاتراك العثمانيين وتكاد تجردهم . بل انها قد جردتهم فعلا من صفة الانتساب

في الانسانية ، حتى اظهرتهم شعبا من غير عاطفة ، يحصد الناس كلأ ، ويعاملهم كالكلاب او الارانب التي يدجنها الانسان .

من هو ذلك السلطان الذي اكتفت الرواية بالرمز اليه تارة بقولها ( وابتدع احدهم ) وتارة اخرى بقولها ( فقد قرر السلطان ) ..؟

ومتى تم ذلك الامر بالتحديد ، وفي اي عام ، بل في اي عهد من عهود سلاطين بني عثمان الأولين ..؟

ثم من اين استقى «جب» و«سوموفيل» روايتهما التي نقل عنها الدكتور غرايبة روايته ؟ ما اسم الكتاب او المرجع التاريخي الذي نقلا عنه ..؟

أليس من مقتضيات التوثيق العلمي والتاريخي ، ان يعرض بين يدي اية رواية تاريخية بالبينات التي تدعم صحتها ، من تحديد الاسماء ، وتحديد المكان والزمان ، وبيان سلسلة الرواة الذين تناقلوا الرواية حتى وصلت الى الراوي الاخير ..!

أليس من مقتضيات التوثيق العلمي ، أن لا يكتفي في رواية تحمل تهمة خطيرة لشعب بأسره ، بل لأمة

بأسرها ، بل للاسلام ذاته الذي كان العثمانيون الأتراك يمثلونه آنذاك ، بالتعميم المبهم وبالعبارات المبهمة ...

ونستغرب كيف ينقل الدكتور الغرايبة ، هذه الرواية ، وبهذا الأسلوب الجارح ، وكأنها أمر لا يرقى اليه شك ، ثم نراه يؤكد في موضع آخر من كتابه أن امارة عثمان أصبحت المتنفس الوحيد للحماس الديني في الاسلام ، وأنها اجتذبت اليها أعداداً من المتحمسين لنصرة الدين ، الراغبين في الجهاد في سبيل الله ، الذين كانوا يتقاطرون بالدفاع شديد ليقاتلوا تحت راية العثمانيين ... .

أليس من حقنا أن نتساءل : ما حاجة عثمان ، ومن بعده أورخان ، ومن بعده مراد ، وهم الذين تناوشتهم سهام الاتهام بتلك الفرية ، ما حاجتهم الى بضع مئات من أطفال النصارى الذين يتطلب اعدادهم للجندية سنوات طويلة ، بينما تنهمر جموع المسلمين المتحمسين لنصرة الدين والراغبين في الجهاد في سبيل الله ، لتنخرط في كتائب الجهاد تحت راية آل عثمان ، كما يؤكد الدكتور الغرايبة في كتابه ..

الأمر الوحيد الذي نتفق فيه مع رواية الدكتور زاوية ، هو ما ذكره عن عدم قيام أحد من السلاطين بإكراه أحد من أطفال النصارى على اعتناق الاسلام ، ذلك لأن السلطان العثماني المسلم ، لم يكن بحاجة الى إرغام أحد من أطفال النصارى على اعتناق الاسلام لأن غالبية الأطفال الذين كانوا يربون تربية اسلامية خاصة لم يكونوا نصارى وانما كانوا ، كما أوضحنا في ردنا على الروايات الثلاثة الأولى ، أبناء آباء مسلمين انخلعوا من النصرانية ، واهتدوا الى الاسلام ، وطفقوا من تلقاء أنفسهم وعن طواعية لا عن اكراه ، يقدمون أبناءهم للسلطان ليستكمل تربيتهم تربية اسلامية ، أما باقي الأطفال فقد كانوا من الايتام والمشردين الذين أفرزتهم الحروب فاحتضنتهم الدولة المسلمة .

اذن فما هي حقيقة هذا الجيش الجديد ... ؟؟

الحقيقة التي نراها ، تؤكد أن أورخان بن عثمان لم يجبر أحدا من أسرى النصارى سواء كانوا شبانا أم أطفالا على الاسلام ، لا بموجب نظام اللقطاء الدوشرمة ، ولا بموجب ضريبة الغلمان المزعومة ، ليكونوا من بعد نواة لجيشه الجديد » .

نقول هذا ولدينا أكثر من دليل :

فالإسلام يرفض مبدأ الإكراه في الدين « لا إكراه في الدين » ، وأورخان رجل مسلم متدين كأبيه . بل إن أخاه علاء الدين الذي أشار عليه بتشكيل الجيش كان عالما في الشريعة ومتصوفا . فلا يعقل أن يشير على أخيه بأمر تأباه الشريعة ، ثم ما حاجة أورخان إلى بضع مئات أو حتى إلى ألف من أسرى النصارى ليشكل منهم جيشا سيكون عماد الدولة وحاميها ، في الوقت الذي يجد فيه من حوله عشرات الآلاف من المسلمين المجاهدين المؤمنين بالإسلام يتقاطرون إليه من جميع الإمارات التي حوله حبا في الجهاد في سبيل الله . في وقت كان فيه الجهاد في سبيل الله ممارسة عملية في ميادين القتال ، لامجرد ترف فكري على صفحات الكتب والصحائف ، أو على ألسنة مجاهدي الصالونات والمؤتمرات .

في الرواية الحقيقية لكيفية تشكيل الجيش الجديد ، نؤكد أن المعارك التي كان يخوضها أورخان كان يعتمد فيها على ( مجاهدي النفير ) الذين كان يطلق عليهم بالتركية اسم «Akincilar» وترجمتها بالعربية

(المتطوعون) وبالتعبير الاسلامي هم أهل النفرة الذين كانوا يستجيبون لنداء الجهاد تجسيدا لقوله تعالى : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » . فهو اذن لم يكن يملك جيشا نظاميا وانما كان لديه بضع مئات من فرسان عشيرته ، ومن المجاهدين ومن امراء الروم وعساكرهم الذين دخل الاسلام الى قلوبهم . وحين كان يحتاج الى عدد أكثر مما لديه كان يطلق النفير ( حي على الجهاد ) فتتقاطر عليه جموع المجاهدين من كل جانب فاذا وضعت الحرب أوزارها عاد المجاهدون من حيث أتوا .

وحين بدأت تبعات مجاهدة البيزنطيين تتزايد ، كان أورخان يجد صعوبة في تجميع المقاتلين في الوقت المناسب . اذ كان تجميعهم يستغرق وقتا طويلا . وأدرك أن الأوان قد آن للتفكير في طريقة جديدة لتجميع المجاهدين تتناسب مع ازدياد تبعات مقاتلة البيزنطيين .

وحين استشار أخاه الأكبر ووزيره الأول علاء الدين ، وقواده الآخرين . أشار عليه علاء الدين وقائده قره خليل بفكرة ايجاد جيش نظامي يكون دائم الاستعداد

والتواجد قريبا منه في حالة الحرب أو السلم على حد سواء .

واقتنع أورخان بهذه الفكرة وباشر من فوره بتنفيذها ، فجمع ألفا من المجاهدين الذين تشهد لهم المعارك التي خاضوها معه بالكفاءة والشجاعة ، وكانوا خليطا من فرسان عشيرته ، ومن أمراء الروم وعساكرهم الذين دخل الاسلام قلوبهم ، وحسن اسلامهم ، ومن مجاهدي النفير الذين كانوا يسارعون لاجابة داعي الجهاد كلما انطلق .

وما كاد أورخان ينتهي من تنظيم هذا الجيش حتى سارع الى حيث يقيم العالم المؤمن التقي الحاج بكتاش شيخ الطريقة البكتاشية ، للطلب منه ان يدعو لهم خيرا . فتقاطر العالم المؤمن حين لقاه ووضع يده على رأس أحد الجنود ، ودعا لهم الله ان يبيض وجوههم ، ويجعل سيوفهم حادة قاطعة ، وأن ينصرهم في كل معركة يخوضونها في سبيل الاسلام .

ثم مال تجاه أورخان فسأله ، هل اتخذت لهذا الجيش اسما . . ؟ قال : لا ، قال : فليكن اسمه «يني جري» وتلفظ «يني تشري» أي الجيش الجديد .

وكانت راية الجيش الجديد من قماش احمر في وسطها هلال ، وتحت الهلال صورة لسيف اطلقوا عليه اسم «ذي الفقار» تيمناً بسيف سيدنا علي كرم الله وجهـــه .

ولعل في شهادة كارل بروكلمان انصع دليل على صحة ما ذكرناه . فهو يقول في الجزء الثالث من كتابه « تاريخ الشعوب الاسلامية » المخصص للحديث عن الاتراك العثمانيين وحضارتهم :

« لقد كانت حرب الحصون والمراكز المنيعة ( التي خاضها أورخـــان تتطلب مقدرات (قدرات) عسكريـة اخرى . والحق ان الحاجة كانت امس ما تكون الى انشاء جيش من المشاة . ولقد عمل السلطان (اورخان)، بادىء الامر . على تأليف ذلـك الجيش مـن الاتراك انفسهم . وكان هذا الجيش مقسماً الى وحدات تتألف من عشرة انفار ، ومئة نفر ، والف نفر . وقد اقترح قرء خليل جاندرلي على اورخـــان احياء العرف الاسلامـي القديم ( الواقع انه ليس عرفاً وانما هو جزء من النظام المالي الاسلامي ) الذي يقضي بان يحتفظ بيت المال

بخمس الغنائم ، وبذلك ضمن للدولة موردا يمكنها من الانفاق على ذلك الجيش النظامي الجديد » .

بيد ان كارل بروكلمان لا يلبث أن ينحرف عن جادة الموضوعية ، ليبدأ في دس السم في الدسم بايراد مزاعم لم ينسبها الى أي مصدر تاريخي قديم أو حديث، عثماني ، أو غير عثماني ، ولم يسندها بأية أدلة تاريخية موثقة ، محاولا الصاق فرية اجبار النصارى على اعتناق الاسلام بالسلطان اورخان ليتسنى له ادخالهم الى جيشه الجديـــد .

يقول بروكلمان :

ولقد حاول (اورخان) أن يستعيض عن فرقة المشاة الأتراك بفرقة يؤلفها من النصارى الذين كانوا يألفون هذا النوع من الخدمة العسكرية ، واذا كان من أهم المبادىء التي يقول بها الشرع الاسلامي أن للمسلمين وحدهم الحق في حمل السلاح ، فقد تعين على الدولة أن تكره النصارى الذين اختيروا لتأليف الجيش الجديد، على الدخول في الدين الاسلامي ، وهكذا افتتحت الدولة هذه الحملة بأن انتزعت ألف غلام نصراني من بيوت

اباهم . واكرهتهم على رفض معتقدهم . بيئة ان تطلع هؤلاء الى مستقبل باهر جعلهم يتعلقون بشخص السلطان ويخلصون له .

وقبل ان اشرع في تفنيد هذه المزاعم التي اطلقها بروكلمان . اود ان اشير الى ان هذه المزاعم تكاد تكون مطابقة مع ما اورده معظم المؤرخين المسلمين كالاستاذ محمد كرد علي . والاستاذ محمد فريد بك المحامي . والدكتور علي حسون . وغيرهم . بل لعلي لا اكون مغاليا ان قلت انهم جميعا ربما استقوا ما ذكروه . أو في الأصح ربما نقلوا ما ذكروه عن كارل بروكلمان نفسه . فقد كان هذا المستشرق . ولعله ما يزال مع الاسف الشديد قبلة أنظار المؤرخين . ومرجعا أساسيا لهم في ما يختص بتاريخ الشعوب الاسلامية .

واعود الى مزاعم بروكلمان فاتساءل :

لماذا يستعيض أورخان عن فرقة المشاة الأتراك المسلمين بفرقة من النصارى .. ؟؟

أيعقل ان اورخان ، وهو المجاهد المسلم ، الذي نذر نفسه للجهاد في سبيل الله على خطى أبيه وجده ،

يمكن ان يرتاب في كفاءة واخلاص وشجاعة جنوده الذين كانوا ، حتى قبل أن ينضموا الى الجيش الجديد ، يهرعون الى ميادين القتال ، لا يدفعهم الى ذلك الا حب الجهاد في سبيل الله ·

ايعقل ان اورخان يمكن ان يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، فيتخلى عن جنوده الذين عمر الايمان قلوبهم ، واستحوذ الاسلام على افئدتهم ، وملك حب الجهاد في سبيل الله نفوسهم ، بجنود نصارى ليس بينهم وبين الاسلام صلة ، ولا يدركون عن معاني الجهاد في سبيل الله شيئا ·· ؟

وكيف يتجرأ كارل بروكلمان على الزعم ان اورخان اراد ان يستبدل جنوده المسلمين بجنود نصارى لأن جنود بيزنطة النصارى يألفون ذلك النوع من الخدمة العسكرية بينما ان جند الاسلام من العثمانيين الاتراك لا يألفونها ·· ؟

لو ان بروكلمان خلع عن عينيه غشاوة الحقد على الاسلام والمسلمين ، لأدرك ان ذلك النوع من الخدمة العسكرية ، لم يبرع به أحد مثلما برع به المسلمون ، وخاصة الاتراك العثمانيون ، وتاريخهم خير دليل .

بـل عالى الاعصب بعيداً ، ولدي يعني شهادة ادلى بهـا بروكلمان نفسه يرد فيها بنفسه على نفسه ، ويدحض بها ما زعمه من عدم كفاءة الاتراك العثمانيين في مجال الخدمة العسكرية .

**يقول بروكلمان بالحرف الواحد :**

« والواقع أن الاتراك اشتهروا منذ خروجهم من الموطن ، بأنهم فرسان بارعـون وجريئون الى حـد التهـور » .

ثم ، كيف يتجرأ بروكلمان على الخوض في امور شرعية اسلامية لا يملك الخوض فيها الا مسلم توفرت فيه شروط عديدة تؤهله للافتاء . . ؟

كيف يبيح بروكلمان لنفسه ، وهو النصراني ، أن يزعم بأنه يعيب على الدولة (يعني العثمانية المسلمة) أن تكره النصارى من الذين اختيروا لتاليف الجيش الحديث ، على الدخول في الدين الاسلامي ، لان الاسلام لا يبيح لغير المسلمين حمل السلاح . ؟

أما أن الاسلام لا يبيح لغير المسلمين حمل السلاح، فتلك كلمة حق أريد بها باطل ، ذلك أن الاسلام فرض

القتال على المسلمين باعتبارهم مسلمين يدينون بالولاء للاسلام . وليس من شأن الاسلام أن يفرض الجهاد أو القتال على الناس لا يدينون به .

بل ان الاسلام يفرض على المسلمين أن يدافعوا عن أرواح وأموال غير المسلمين الذين يعيشون في كنف المسلمين ويؤدون لهم الجزية ، ومن دون أن يكلف هؤلاء بالمشاركة في أعباء القتال . وان حكم الاسلام في هذه المسألة واضح لا لبس فيه ولا غموض : « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

ويزعم بروكلمان ، ويا لهول ما يزعم ، ان الدولة العثمانية افتتحت حملة الأسلمة الاجباري « بأن انتزعت ألف غلام نصراني من بيوت آبائهم واكرهتهم على رفض معتقدهم . بيد ان تطلع هؤلاء الى مستقبل باهر جعلهم يتعلقون بشخص السلطان ويخلصون له » .

**كلام يهدم بعضه بعضا :**

اذا ، لماذا تضطر الدولة الى انتزاع ألف غلام نصراني قسرا من بيوت آبائهم ، لتضمهم الى جيش السلطان ، بينما ان هؤلاء الغلمان ، كما يشهد بذلك

بروكلمان نفسه ، كانوا يطمحون ان يلتحقوا بجيش السلطان ليحققوا لانفسهم مستقبلا باهرا ٠٠ ؟!

بل ان ما يزعمه بروكلمان من ان اورخان انتزع الغلمان النصارى انتزاعا من آبائهم يتهاوى امام ما ذكره الدكتور عمر عبد العزيز عمر في كتابه « محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية » ، من ان العديد من المؤرخين النصارى يعترفون ان الآباء البيزنطيين الذين اهتدوا الى الاسلام ، كانوا يتشوقون الى تقديم ابنائهم عن طواعية للسلطان العثماني ليربيهم تربيـة اسلاميـة ويلحقهم بالجيش .

ثم ، لماذا تكره الدولة (العثمانية) هؤلاء الغلمان على ترك معتقدهم ، بينما ان هؤلاء الغلمان انفسهم يسعون لتحقيق مستقبل باهر لانفسهم من خلال تعلقهم بالسلطان والاخلاص له ، ولا يتم ذلك الا اذا انخلعوا من ... انفسهم ، ومن غير اكراه عن معتقدهم القديم ، واعتنقوا معتقدات سيدهم الجديد الذي سيحقق لهم آمالهم في مستقبل باهر ٠٠ ؟

ونختتم الرد على تلك الفرية بايراد بعض الروايات التي وردت في مصادر تركية اذ يروي الصدر الاعظم

كامل باشا في كتابه « التاريخ السياسي للدولة العثمانية العلية » . ان اورخان بن عثمان اراد ان يزيد عدد جيشه الجديد بعد أن ازدادت تبعات الجهاد ومناجزة البيزنطيين ، فاختار عدداً من شباب الترك وعدداً من شباب البيزنطيين الذين أسلموا وحسن اسلامهم ، فضمهم الى الجيش واهتم اهتماماً كبيراً بتربيتهم تربية اسلامية جهادية .

ولم يلبث الجيش الجديد حتى تزايد عدده ، واصبح يضم الافا من المجاهدين في سبيل الله .

واذا علمنا ان الجهاد في سبيل الله والغيرة على نشر الاسلام كانا الدافع الذي انطلق منه عثمان بن ارطغرل ومن بعده ابنه أورخان ، في جميع معاركهما ضد البيزنطيين ، لذا فان من الطبيعي ان يكون هذا الدافع ذاته هو المنطلق الوحيد للجيش الجديد .

وتأكيداً لهذا القول ، يذكر المؤرخ التركي احمد رفيق في كتابه « بيوك تاريخ عمومي » ان اورخان وعلاء الدين كانا متفقين على ان الهدف الرئيسي لتشكيل الجيش الجديد ، هو مواصلة الجهاد ضد البيزنطيين ولفتح المزيد من أراضيهم بهدف نشر الاسلام فيها .

والاستفادة من البيزنطيين الذين أسلموا في نشر الاسلام بعد ان يكونوا تلقوا تربية اسلامية وجهادية وترسخت في قلوبهم مبادىء الاسلام سلوكا وجهادا .

خلاصة القول ، أن السلطان أورخان ، لم ينتزع غلاما نصرانيا واحدا من بيت أبيه ، ولم يكره غلاما نصرانيا واحدا على اعتناق الاسلام . وأن كل ما زعمه الزاعمون من امثال كارل بروكلمان ، انما هو هراء ، في هراء ، ينبغي ان تنمحي آثاره من كتب تاريخنا الاسلامي .

ولعل من المفيد ان نشير الى ان وجود عدد من المسلمين البيزنطيين ، امراء وعساكر ، في هذا الجيش ، هو الذي اوجد للماكرين ثغرة ينفثون من خلالها فريتهم وبهتانهم ، فيزعمون ما زعموه من أن العثمانيين يجبرون اطفال النصارى على الاسلام ليشكلوا منهم جيشهم الجديد .

الا ساء ما يفترون ، كان هؤلاء لا يعلمون ان الاسلام يجب ما قبله ، وان هؤلاء المسلمين البيزنطيين الذين يصرون على تسميتهم بالنصارى لم يعودوا نصارى منذ اللحظة التي دخل الاسلام فيها الى قلوبهم ، وكانهم

لا يعلمون أن هؤلاء المسلمين البيزنطيين قد دخلوا الجيش الجديد ليجاهدوا في صفوفه تحت راية الاسلام الذي آمنوا به بعد أن انخلعوا من نصرانيتهم .

وبعـــد ...

فإن مقتضيات الأمانة العلمية ، ومقتضيات الأخوة الاسلامية ، تضع في عنق كل مسلم غيور ، وخاصة المؤرخين ، والمدرسين ، والباحثين ، والاعلاميين ، أمانة التصدي لهذه الفرية ، وتنقية مؤلفاتهم وكتاباتهم من بهتانهـــا .

ولقد آن الأوان لتتوقف كل يد مسلمة وكل لسان مسلم عن ترديد هذا البهتان اللئيم ..

وتثبتَ كلُّ يدٍ تصر ، من بعد ما تبين لها الرشد من الغي ، على ترديد هذا البهتان .

# ما هي حقيقة الفتوى الشرعية المزعومة التي تبيح للسلاطين قتل أبنائهم واخوانهم ؟*

ان القلب ليتفطر ألماً ، حين تجد عشرات الدراسات التاريخية التي اعدها مؤرخون مسلمون ، بعضهم يشهد لهم بالغيرة على الاسلام ، قد حفلت بفرية خبيثة لئيمة الصقها الحاقدون بالعثمانيين المسلمين .

تلك الفرية المشينة التي لا يكاد يخلو منها الا النذر اليسير من الكتب التي تؤرخ للعثمانيين المسلمين ، والتي تزعم ان السلاطين العثمانيين كانوا يملكون الحق ، بموجب فتوى شرعية اسلامية ، في قتل من يشاؤون من اخوانهم او بني رحمهم ، او اقاربهم ، بحجة الحفاظ على وحدة المسلمين ، ولقطع الطريق على اية فتنة يمكن ان تبرز اذا حاول احدهم المطالبة بالسلطة لنفسه .

وكان آخر ما وقع عليه نظري من ترديد لهذه الفرية ، ما جاء في مقال للاستاذ ابراهيم محمد الفحام في عدد المحرم ١٤٠٢هـ نوفمبر ١٩٨١م من مجلة العربي التي تصدر في الكويت ، حيث ذهب الى القول ان

السلاطين العثمانيين الجدد اعتادوا عند توليهم مقاليد السلطة أن يقتلوا أخوانهم جميعاً ، ليأمنوا محاولات اغتصاب الملك . وأن هذه الظاهرة تكررت مراراً في تاريخ الدولــة العثمانية حتى شمل القتل الأخوة الأصاغر سناً .

ولئن كنت لا أنفي ، ولا أنكر ، وقوع العديد من حـوادث الصراع على السلطة بين بعض السلاطين العثمانيين وبين بعض أخوانهم ، بل وأحياناً بينهم وبين أبنائهم . وأن بعض هذه الصراعات كانت تنتهي بقتل أحد الأطراف المتصارعة ، إلا أنني أنفي ، وبكل شدة ، وباصرار ، ما يزعمه الزاعمون عن وجود فتوى شرعية اسلامية تبيح لكل سلطان عثماني جديد أن يقتل من يشاء من أخوانه ، أو بني رحمه ، بحجة المحافظة على وحدة المسلمين ، ومنعاً لوقوع الفتنة .

**أقول هذا .. وأتساءل :**

أليس من مقتضيات أمانة التوثيق العلمي والتاريخي، أن يتقدم بين يدي أية رواية تاريخية بالبينات التي تدعم صحتها ، من تحديد للاسماء ، والأمكنة ، والأزمنة،

وبيان سلسلة الرواة الذين تناقلوا الرواية ، الى ان وصلت الى راويها الأخير ٠٠ ؟

ثم ، أليس من مقتضيات أمانة التوثيق العلمي والتاريخي ، ان لا يكتفي بالتعميم المبهم ، بعبارات مبهمة ، في رواية تحمل تهمة خطيرة للشعب بأسره هو الشعب التركي المسلم ، بل للأمة بأسرها ، هي أمة الإسلام ، بل للاسلام ذاته الذي كان العثمانيون يحملون لواءه ويمثلونه آنذاك ٠٠ ؟

اين نص الفتوى الشرعية التي يزعم الزاعمون أنها تبيح للسلاطين العثمانيين قتل بني رحمهم من غير أي مسوغ شرعي ٠٠ ؟

اين اسماء العلماء المسلمين الذين افتوا بهذه الفتوى المزعومة ٠ ؟

وفي زمن أي من سلاطين بني عثمان على التحديد ، صدرت هذه الفتوى ٠ ؟

لقد قرأت بضعا وعشرين مرجعا عربيا ، وتركيا ، وانجليزيا ، تؤرخ للعثمانيين المسلمين ، فما وجدت من بينها مرجعا واحدا يذكر نص الفتوى المزعومة ، او يذكر اسما لشيخ واحد تنسب الفتوى اليه ، بل

لقد اكتفى كل مرجع عند ذكر هذه الفرية بسردها وكأنها يقين لا يرقى اليه شك ، لا يحتاج الى توثيق .

بل لقد تضاربت تلك المراجع تضاربا فاضحا في تحديد اسم السلطان الذي تزعم الفرية أنه كان وراء استصدار هذه الفتوى المزعومة . فتارة يزعمون أنه السلطان عثمان بن ارطغرل . ويستندون في زعمهم الى مقولة تزعم ان عثمان قتل عمه دوندار بناء على تلك الفتوى . وتارة يزعمون أنه السلطان مراد بن أورخان ، ويستندون في زعمهم الى حادثة اعدام السلطان مراد لولده ساوجي بعد ان ثبتت خيانته حين حارب في صفوف البيزنطيين ضد المسلمين ، وتارة يزعمون ان السلطان بايزيد الاول (الصاعقة) هو الذي استصدر تلك الفتوى ، ويستندون في ذلك الى قيامه باغتيال أخيه الأصغر يعقوب . بل لقد امتد لهيب البهتان الى السلطان محمد الفاتح . انعم به من فاتح . فزعم الزاعمون أنه هو الذي استصدر الفتوى ، ويستندون في ذلك الى حادثة غرق اخيه الطفل الرضيع أحمد حين غفلت عنه مربيته اثناء عملية غسله في الحمام ، وتارة يزعمون ان السلطان سليم الاول هو صاحب تلك الفتوى ، واحيانا ينسبونها الى السلطان سليمان القانوني .

وقبل ان اتحدث بشيء من التفصيل عن تلك الاحداث التي تشبثت بها الزاعمون ليرفدوا بها فريتهم ، يجدر بي ان أؤكد ان الاسلام يرفض رفضاً قاطعاً هذا المبدأ ، ولا يقبل مطلقاً ان تهون حياة المسلم ، أي مسلم ، الى درجة تباح فيها حياته لمجرد شبهة ، أو من اجل وساوس وأوهام تستتر وراء الزعم بالغيرة على جماعة المسلمين من ان تقع في فتنة مزعومة لم يقم على وقوعها ، أو على مجرد الشك بوقوعها ، دليل شرعي .

ان طبيعة الاسلام ، واخلاق الاسلام ، وانسانية الاسلام ، ترفض رفضاً قاطعاً ان تصدر باسم الاسلام فتوى تبيح لأي انسان مهما بلغ شأنه ، ان يقتل مسلماً الا في الحالات التي نص عليها الشرع ، الثيب الزاني ، والمفارق لدينه التارك للجماعة (المرتد) ، والقاتل عمداً ( النفس بالنفس ) .

الا ، وانّ كل مسلم مهما كان مستوى علمه ، يعلم ان قتل النفس ، اي نفس ، محرم في شرع الله عز وجل الاّ ضمن الحدود التي حددها الله عز وجل .

ولقد ندد الله عز وجل أيما تنديد ، بتلك الجريمة التي اقترفها قابيل ابن سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام يوم طوعت له نفسه قتل أخيه هابيل فقتله .

« واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين * لئن بسطت الي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلك اني اخاف الله رب العالمين * اني اريد أن تبوء باثمي واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين * فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين * فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين » سورة المائدة ٢٧ ـ ٣٠ .

بل ان الله عز وجل ، لم يكتف بالتنديد بجريمة قابيل ، بل جعلها منطلقا لحكم رباني يؤكد حرمة النفس البشرية تأكيدا قاطعا لا لبس فيه ولا غموض :

« من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل

الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » سورة المائدة ٣٢ ".

تلك هي الحقيقة . حقيقة تؤكد براءة الاسلام من تلك الفتوى المزعومة . وتؤكد رفض الاسلام لهـذا الهـراء ..

فمن أين جاءت هذه الفرية اذن .. ؟

وما هي دوافعها . ومـاذا يقصد مروجوها مـن ورائها .. ؟

أما الدوافع التي تكمن وراء ترويج هذه الفرية ، فلا أملك الا أن أقول انها نابعة من الحقد الأسود الذي تمتلىء به قلوب العديد من المؤرخين الصليبيين من أعداء الاسلام . ضد الاسلام والمسلمين ..

فلقد انتهز بعض المؤرخين الصليبيين الحاقدين ، وقلدهم في ذلك عن قصد أو عن غير قصد . بعض المؤرخين الذين يحملون أسماء اسلامية . وقوع بعض حوادث الصراع الدموي على السلطة في الدولة العثمانية . وهو أمر لم تسلم منه أمة من الأمم على مدار التاريخ . فوجدوا في تلك الأحداث متنفساً ليفثوا مـن خلالـه

أحقادهم الدفينة ضد الاسلام والمسلمين ، فوجهوا سهام افتراءاتهم ضد العثمانيين المسلمين ، وهم في حقيقة الأمر يوجهونها الى الاسلام الذي كان العثمانيون يمثلونه آنــــذاك .

بل لقد اشتط الحقد بهؤلاء الحاقدين ، فطفقوا يلتقطون بعض الحوادث العاديـــة ، فيحرفونها عن حقيقتها ، وينسجون من حولها الأقاويل الكاذبة ، ليؤيدوا بها افتراءاتهم ضد الاسلام والمسلمين .

**أول هذا ، وبين يدي أكثر من دليل :**

وابدأ بحادثــة مقتل الأمير دونــدار عــم السلطان عثمان . وهي حادثة أوردها المؤرخ التركي المعاصر اسماعيل حامي دانشمند في كتابه « موسوعة التاريخ العثماني » الذي ألفه في عام ١٩٤٥ ، أي في الوقت الذي كانت فيه أهواء الردة الأتاتوركية في أصخب حالات هبوبها على تركيا ، بكل ما تحمله من مشاعر العداء للعثمانيين المسلمين ، وزعم فيها أن عثمان ابن أرطغرل استشار عمه دوندار البالغ من العمر تسعين عاما ، في أمر عزمه على محاربة البيزنطيين ، فعارضه

عمه في الرأي ، فلم يتحمل عثمان معارضة عمه ، فقام باغتياله بقذفه برميه بسهم انتقاماً منه بسبب معارضته لــــه .

ولئن كانت هذه الرواية بنصها هذا من الضعف بحيث خلت منها معظم المراجع التي تؤرخ لعثمان بن أرطغرل ، ولئن كان من أدلة ضعفها أن اسماعيل حامي دنشمند لم يوثق روايته لهذه الحادثة بايراد اسم المرجع ، أو اسم المؤرخ الذي نقل عنه الرواية ، فان الحاقدين على العثمانيين المسلمين ، بل على الاسلام الذي يمثله العثمانيون ، التقفوا هذه الحادثة ، ونسجوا من حولها من سواد حقدهم ما لا تحتمل ، فزعموا ، وبئس ما زعموا ، أن عثمان قتل عمه دوندار وبناء على فتوى شرعية تبيح له قتله خشية أن يزاحمه على السلطنة ، مما قد يؤدي الى وقوع الفتنة بين المسلمين .

ولئن كان من الانصاف أن نشير الى أن ما نقلته المراجع الموثوقة التي آرخت لعثمان بن أرطغرل ، عن شدة تعلق عثمان بأحكام الشريعة الاسلامية ، وعن التزامه الصادق بالاسلام ، عبادة ، وخلقاً ، وتواضعاً ، لما نقلته عن توقيره الشديد لعمه الشيخ الكبير دوندار ،

يجعلنا نستبعد تصديق مقولة أن عثمان قد قتل عمه لمجرد معارضة له في الرأي . ويجعلنا على يقين أنه ما فعل ذلك إلا لسبب جلل ، أكبر من مجرد الاختلاف في الرأي .

ويرسخ قناعتنا ما أورده المؤرخ التركي المعاصر قادر مصر أوغلو في كتابه « مأساة بني عثمان » المطبوع في استانبول في عام ١٩٧٦ ، في وقت كانت المشاعر الاسلامية في تركيا تشهد فيه شيئاً من اشكال الحرية التي تستطيع معها أن تعبر عن حقيقة رفضها لمشاعر العداء التي حاولت الردة الأتاتوركية ترسيخها ضد العثمانيين المسلمين في نفوس الأتراك .

ففي كتابه ذلك ، ينقل قادر مصر أوغلو ، عن المؤرخ التركي خير الله أفندي الذي عاصر عثمان بن أرطغرل ، أن دوندار كان طرفاً في مؤامرة اتفق على تدبيرها بالتعاون مع حاكم مدينة «بيله جك» البيزنطي ، تستهدف اغتيال عثمان ، تمهيداً لوثوب دوندار الى الزعامة خلفاً لعثمان ، فلما انفضح أمر المؤامرة ، أصر عثمان ، وهو الحريص على تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية ، على تنفيذ حكم الله في عمه جزاء اقترافه

بحرمة موالاة أعداء الاسلام . والتآمر معهم ضد جماعة المسلمين .

وتلك لعمري ، نقطة بيضاء ، ووقفة شماء شامخة ، سجل في حسنات عثمان بن ارطغرل ، اذ أكد من خلال حرصه على تطبيق شرع الله في عمه ، على صدق التزامه بالاسلام ، وصدق خضوعه لحكمه ، وصدق تفضيله لوشيجة العقيدة ، وارتباطه بها ، فوق وشيجة الدم والقرابة .

تلك هي حقيقة قصة السلطان عثمان بن ارطغرل مع عمه دوندار ، تتهاوى امامها أباطيل الحاقدين ، وارجاف المرجفين .

اما قصة السلطان مراد بن اورخان مع ولده الأمير صاوجي ، فهي ايضا علامة بارزة تؤكد صدق التزام مراد بالاسلام ، وصدق خضوعه لأحكام شريعته .

ففي الوقت الذي كان السلطان مراد يواجه أشرس الحملات الملاحقة التي تمثلت في العديد من الأحلاف الصليبية المقدسة التي تجمع تحت ألويتها ملوك وأمراء المجر والصرب والبلغار والارناؤوط (الباتيا) ،

بمباركة من بابا روما أوربيان الخامس ، وبحرير صادر منه (٧٦٦هـ - ١٣٦٥م) ، وفي الوقت الذي كان فيه السلطان مراد يواجه فيه خطرا آخر تمثل في قيام الأمير الإيطالي اميديو بتجميع جيش من الإيطاليين تحت شعار الانتقام للصليب من العثمانيين المسلمين (٧٧٠هـ - ١٣٦٨م) ، وفي الوقت الذي ازداد فيه الخطر ضد الدولة العثمانية المسلمة ، بقيام امبراطور بيزنطة يواليس الخامس بزيارة روما في عام (٧٧١هـ - ١٣٦٩م) مستنجدا بالبابا ضد العثمانيين المسلمين ، ومعلنا تحوله عن مذهبه الأرثوذكسي الى المذهب الكاثوليكي في محاولة لاسترضاء بابا روما لاقناعه بمده بالنجدة التي يطلبها ضد العثمانيين المسلمين .

وفي الوقت الذي كان السلطان مراد يواجه خطرا داهما جديدا تمثل في نجاح البابا بتجنيد أكثر من ستين ألف مقاتل صليبي بقيادة ملك بلاد الصرب الجديد ووقاشين (٧٧٢هـ - ١٣٧٠م) .

في ذلك الوقت الذي كان السلطان مراد لا يكاد ينجح في التغلب على احدى مكائد الاعداء ، حتى يواجه مكيدة أخرى . كان ولده الأمير ساوجي يتآمر سرا مع

الامبراطور البيزنطي أندرونيقوس ، الابن الثاني للامبراطور باليس ، لتدبير مؤامرة للإطاحة بالسلطان مراد ، وتسليم السلطة للأمير ساوجي ، وسرعان ما انتقلت المؤامرة من مرحلة التدبير ، الى مرحلة التنفيذ ، فسار الأميران ساوجي واندرونيقوس على رأس جيش كانت غالبية جنوده من البيزنطيين ، وتمركزا بجيشيهما في منطقة لا تبعد كثيرا عن القسطنطينية ، فسارع السلطان مراد لملاقاتهما ، فما كاد يقترب منهما حتى خارت معنويات المتآمرين ففر الجنود البيزنطيون عن أنصار اندرونيقوس ، ولحقا الجنود العثمانيون من أنصار الأمير ساوجي الى جيش أبيه السلطان مراد ، فأصبح ساوجي واندرونيقوس من غير جيش ، فلم يجدا أمامهما مفرا من الهرب ، ففرا الى مدينة «ديموقة» ، فلحق بهما السلطان مراد ، واضطرهما الى الاستسلام .

وجمع السلطان نخبة من القادة والعلماء والقضاة لمحاكمة ولده ساوجي ، فحكموا عليه بالموت جزاء خروجه عن طاعة ولي الأمر ، وجزاء موالاته للكفار أعداء الاسلام والتحالف معهم قولا وفعلا في محاربة المسلمين .

وامر السلطان مراد بتنفيذ حكم الشرع في ولده ، مسجلا بذلك صدق ولائه لحكم الشريعة ، وصدق التزامه بالاسلام . ولكاني به وهو يفعل ذلك ، كان يستشعر قوله تعالى عز وجل :

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم اولئك كتب الله في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون » سورة المجادلة آيـة ٢٢ .

اما اندرونيقوس فلم يشأ مراد أن يقتله ، وكان بمقدوره أن يفعل ذلك ، دون أن يجرؤ أحد على مجرد مفاتحته ، بله الاعتراض عليه . ولكنه آثر أن يترك أمره لابيه ، فارسله اليه ، ففقأ عينيه ، ثم نفاه خارج القسطنطينية وبقي منفيا حتى مات ، وما أحسب الا أن الامبراطور قد فعل ما فعل بابنه اندرونيقوس خوفا من السلطان مراد ، وليس عن قناعة .

وانه كان من الطبيعي ان يستغل الحاقدون حادثة مقتل ساوجي، فتلقفوها بلهفة حاقدة، وطفقوا ينسجون حولها، كدأبهم في كل حادثة مماثلة، الاقاويل والادعاءات ليرفدوا من خلالها فريتهم عن الفتوى الشرعية المزعومة التي تبيح للسلطان العثماني المسلم قتل من يشاء من بني رحمه، الا ساء ما يصفون.

وكان من الطبيعي ان ينشط الحقد بأعداء الاسلام، فينفثوا حقدهم ضد السلطان مراد، ويتهمونه بالوحشية وتحجر عاطفة الأبوة في قلبه، وما دروا أن صدق الالتزام بالاسلام يجعل وشيجة العقيدة فوق كل وشيجة. وصلوات الله وسلامه على نبينا محمد الذي علم المسلمين هذه الحقيقة الايمانية، حين قال «والله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

وانتقل الى حادثة قتل السلطان بايزيد بن مراد (الصاعقة) لأخيه الأصغر يعقوب، فلا اجد غضاضة في تأكيد وقوعها، ولا أجد حاجة الى محاولة تبريرها، فقد استهل بايزيد عهده فعلا بارتكاب جريمة بشعة حين اقدم على قتل اخيه الصغير يعقوب، بتحريض من بعض انصاره الذين طفقوا يوغرون صدره ضد اخيه،

الذي كان شجاعاً ، قوي الشخصية . ووجدت وشاية المرضين هوى في نفس بايزيد الذي خشي أن يزاحمه يعقوب على السلطنة ، واشتطت به وساوسه حين أخذ الوشاة يذكرونه بأن جده أورخان بن عثمان ولي السلطنة رغم كونه الأصغر سناً من أخيه الأمير علاء الديـــن .

هنالك تلقف الحاقدون على الاسلام تلك الحادثة ، فوجدوا فيها متنفساً جديداً لأحقادهم وساعدهم على ذلك أن جريمة قتل بايزيد لأخيه قد تمت غيلة وبوحشية فطفقوا يرددون فريتهم التي تزعم أن بايزيد قتل أخاه يعقوب بناء عن تلك الفتوى الشرعية المزعومة .

ولئن كنت لا أنكر أن بايزيد قد ارتكب جريمته البشعة فعلا ، بعد أن غلبه هواه ، وزينت له وساوسه أن يقترف تلك الجريمة ، وطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فانني أندفع بكل عزم لأؤكد براءة الاسلام من تلك الجريمة ، واستنكاره لها ، فالجريمة يتحمل وزرها بايزيد وحده ، وليس من العدل ، ولا من الانصاف ، ولا من المنطق أن نزج بالاسلام في عملية تبريرها .

ويجدر ان نشير هنا الى ان الجفاء كان مستحكما بين العلماء والسلطان بايزيد ، لدرجة أستبعد معها ان يجد بايزيد عالما واحدا يستجيب له فيصدر تلك الفتوى التي ينسب استصدارها في بعض المراجع الى بايزيد .

ولقد بلغ من حدة ذلك الجفاء ، ان العالم المؤمن القاضي شمس الدين محمد حمزة الفناري ، رد شهادة السلطان بايزيد في احدى القضايا . فلما راجعه بايزيد في ذلك ، اجابه القاضي المؤمن بانه رد شهادته لأنه تارك لصلاة الجماعة .

بل لقد بلغ الجفاء بين العلماء والسلطان بايزيد الى حد اقرب ما يكون الى القطيعة بسبب استنكارهم لوقوعه تحت سيطرة وتأثير زوجته النصرانية الأميرة اوليفرا شقيقة ملك الصرب لازار ، وتماديه بتحريض منها على ادمان شرب الخمر ، واقامة حفلات اللهو ، ويذكر المؤرخ التركي المعاصر اسماعيل حامي دانشمند في كتابه « موسوعة التاريخ العثماني » ، ان بايزيد ذهب ليتفقد العمال في بناء مسجد «اولو جامع» في بورصة وكان قد أوشك بناؤه على الانتهاء . فالتقى خلال تجواله في المسجد بالعالم المؤمن شمس الدين

الفناري . فسأله هل سمع من الناس عن رأيه في بناء المسجد . وهل يرى في البناء أي نقص .. ؟ فأجابه العالم الأمين بجواب ساخر يحمل بين طياته مشاعر عدم الرضى عن سيرة بايزيد المنافية للاسلام . فقال له :

بالنسبة لنا نحن المسلمين . فإننا لا نجد أي نقص في بناء المسجد . أما بالنسبة إليك يا بايزيد . فإنني أخشى أن تكون قد نسيت أن تضع خزانة تحفظ بها خمورك بجانب المحراب .

أيعقل بعد هذا . أن يجد بايزيد . عالماً واحداً يفتي له بقتل أخيه من غير مسوغ شرعي .. ؟

ولقد وجد الحاقدون واحداً جديداً يدعمون به فريتهم فيما وقع من صراع دموي بين أبناء بايزيد الصاعقة . حين قتل محمد بن بايزيد أخوته عيسى ثم سليمان ، ثم موسى لينفرد بحكم السلطنة .

ولئن اشتط المغرضون في حقدهم فزعموا أن محمد ابن بايزيد قد قتل أخوته بموجب تلك الفتوى الشرعية المزعومة . فإن الحقائق التاريخية تؤكد أن ما جرى بين أبناء بايزيد من اقتتال دموي . كان اقتتالاً مصلحياً

مراحل الطموحات الشخصية لكل واحد من أبناء بايزيد بالجلوس على عرش السلطنة . وليس من العدل ، ولا من الانصاف ، أن يزج بالاسلام في هذا المقام .

وينبغي ان اشير الى ان شهوة الجلوس على عرش السلطنة قد اشتطت بأبناء بايزيد لدرجة لم يجدوا معها غضاضة في الاستعانة بأعداء الاسلام من البيزنطيين ضد بعضهم البعض . كما فعل سليمان بن بايزيد حين تنازل لملك الروم ايمانويل الثاني عن مدينة سلانيك وسواحل البحر الاسود مقابل الوقوف الى جانبه ضد اخويه الآخرين عيسى ومحمد .

هذا ، وينبغي ان اشير الى ان بعض المؤرخين المغرضين ، زعموا ان الفتوى الشرعية المزعومة التي تبيح للسلطان قتل بني رحمه من غير مسوغ شرعي ، هي تلك الفتوى التي اصدرها الشيخ سعيد احد تلاميذ الشيخ التفتازاني ، والتي ورد نصها على النحو التالي : « من اتاكم وامركم جميعا على رجل واحد ، يريد ان يشق عصاكم ، ويفرق جمعكم ، فاقتلوه » .

والحقيقة ان هذه الفتوى قد صدرت عام ٨٢٣هـ ـ ١٤٢٠م . كما يورد المؤرخ التركي عبد القادر داي اوغلو في كتابه « التاريخ العثماني المصور » ضد احد قضاة العسكر وهو الشيخ بدر الدين والذي ثار على السلطان . وتزعم حركة ثورية تنادي بالغاء التفرقة بين الاديان . وبتوزيع الاموال سواسية بين الناس ، وقد انضم الى حركة الشيخ بدر الدين . كما يروي الاستاذ محمد فريد في كتابه « تاريخ الدولة العلية العثمانية » عدد من اليهود والنصارى . وعندما وقع بدر الدين في الاسر بعد معركة حامية الوطيس حوكم امام هيئة من كبار العلماء والقضاة . فصدرت بحقه الفتوى بنصها الذي اوردته آنفا . وبتوقيع الشيخ سعيد . ويروي المؤرخ التركي المعاصر اسماعيل حامي دانشمند في كتابه « موسوعة التاريخ العثماني » ان الشيخ بدر الدين قد وقع بنفسه أيضا على الفتوى اعترافا بذنبه . وتم اعدامه شنقا على ملأ من الناس في السوق الرئيسي في مدينة سراز .

ولقد وجد المغرضون مبررا آخر لرفد بهتانهم بخصوص الفتوى المزعومة . في حادثة اعدام السلطان مراد الثاني لعمه مصطفى بن بايزيد .

وحقيقة الأمر أن مصطفى بن بايزيد كان قد اختفى وانقطعت أخباره بعد هزيمة بايزيد الصاعقة في معركة أنقرة أمام تيمورلنك . ثم ظهر فجأة في زمن أخيه السلطان محمد جلبي بن بايزيد . مطالباً بالسلطنة لنفسه . واستنجد بأعداء الاسلام من البيزنطيين فأمدوه بالمساعدات . وأوعزوا لأمير بلاد الفلاخ بامداده بجيش كبير . ولكن مصطفى فشل في تحقيق أي نجاح . واضطر إلى اللجوء الى سلانيك التي كان الأمير سليمان بن بايزيد قد أعادها الى السيطرة البيزنطية مقابل وعدهم له بمساعدته ضد أخوته كما أسلفت قبل قليل . واتفق السلطان محمد جلبي مع امبراطور بيزنطية على ابقاء أخيه مصطفى في سلانيك تحت مراقبة الامبراطور ، مقابل مبلغ من المال . واستمر الأمر على هذا النحو الى أن ولي السلطنة السلطان مراد الثاني ابن محمد جلبي ، فتحرش به الامبراطور ايمانويل الثاني في محاولة منه لاعادة هيبة الامبراطورية . وطلب منه عقد معاهدة يتعهد مراد بموجبها بعدم القيام بأية محاولة لغزو القسطنطينية . فلما وقف السلطان مراد موقفاً حازماً في وجه ايمانويل . ورفض مطالبه . عمد ايمانويل الى

استدعاء الأمير مصطفى وأمده بعشر سفن حربية مدججة بالجنود والسلاح . فتمكن مصطفى من الاستيلاء على مدينة وميناء غاليبولي ، ثم تمكن من التغلب على الجيش العثماني الذي أرسله السلطان مراد لمحاربته بقيادة وزيره بايزيد باشا . فسار السلطان مراد الثاني بنفسه لملاقاة عمه مصطفى الذي لم يلبث أن وقع في أسر مراد ، ليواجه عقوبة الاعدام شنقاً . جزاء خيانته لله ولرسوله وللمؤمنين . وهل من خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين أعظم من موالاة الكافرين والاستعانة بجنودهم واسطولهم في حرب المسلمين .

اذاً نفذ مراد حكم الله في عمه مصطفى . جزاء موالاته للكفار ضد المسلمين . وجزاء اثارته الفتنة في جماعة المسلمين . فيبري الحاقدون ليزعموا ، وبئس ما يزعمون ، ان الاسلام يبيح للسلطان قتل بني وعمه كيفما يشاء . . .

### فرية باطلة . . وبهتان عظيم

واجدني هنا مضطراً للتوقف وقفة أرد بها فرية خبيثة ، ودنيئة ، الصقت بالسلطان محمد الفاتح ، انهم

ومن فاتح ، فقد درج بعض المؤرخين ، وهم يؤرخون لحياة محمد الفاتح عـلى الزعم بأنه قام بقتل أخيه الرضيع أحمد جلبي بعد أيام قليلة من تسلمه مسؤولية السلطنة بعد وفـاة أبيه السلطان مراد ، خشية أن يزاحمه على السلطنة ، ومن المؤسف أن هذا الزعم لم يقتصر على المؤرخين غير المسلمين ، وانمـا وقع في حبائله عدد من المؤرخين المسلمين .

ولئن كانت هذه الفرية التي ألصقت بالسلطان محمد الفاتح تكاد تكون أوهن من بيت العنكبوت ، الا أنني أجد من الواجب التوقف عندها ، وتفنيدها ، لكي لا يبقى من بعد ذلك عـذر لأي مؤرخ يحترم نفسه ، ويحترم شرف الكلمة التي يؤرخ بها ، أن يستمر في ترديد هذا البهتان العظيم ضد السلطان محمد الفاتح، العم به من فاتح .

ونبـدأ بمناقشة الدافع الذي زعـم المفترون أن السلطان محمد الفاتح قد قتـل الخـاه الرضيع احمد بسببه ، والذي يزعمون انه كان بسبب خشية السلطان محمد الفاتح من قيام أخيه الرضيع بمنافسته عـلى السلطنة ...

تالله . ما سمعت كلاماً بمثل هذا السخف في تبرير عملية قتل طفل رضيع ..!

أفهل يعقل ان سلطاناً ولي السلطنة في عهد أبيه، وتحت كنفه ، ثم وليها من بعد وفاة أبيه ، وقد اشتد ساعده ، ونضجت خبرته . والتفت الأمة من حوله تحوطه بالحب والطاعة . أفيعقل أن هذا السلطان يغار من أخ له رضيع . فيخشى ان ينازعه على السلطنة ..؟ وكيف يتسنى لطفل رضيع . وأنى له . ان ينازع على السلطنة . وهو الرضيع الذي ان تأخرت أمه عليه بالحليب يوماً مات جوعاً .

ثم . هل يصدق انسان سوي عاقل ، ان محمداً الفاتح . ذلك الشاب المؤمن الذي تربى على مائدة القرآن . على يد خيرة علماء عصره الشيخ أحمد بن اسماعيل الكوراني الذي كان الفاتح يسميه « أبا حنيفة زمانه » ، والشيخ محمد أوغلو ، والشيخ محمد جلبي زادة ، والشيخ مولا اياس ، والشيخ الفوراني، والشيخ سراج الدين الحلبي ، والشيخ آق شمس الدين ، يمكن ان يفكر بمثل هذا الأمر الفظيع ...؟

ل . لعرضي جدلا أن محمدا الفاتح كان يوجس
يفة أن ينازعه أخوه الرضيع على السلطنة ، أفما كان
يستطيع أن يحتويه تحت كنفه ، ويربيه على الاخلاص
ه ، بدل أن يقتله ... ؟

ولماذا يستبق محمد الفاتح الامور فيقتل أخاه
الرضيع ، وقد كان بامكانه أن ينتظر وهو مطمئن
لمال بضعة عشر عاما حتى يكبر أخوه ، فيتحقق من
نوازعه ونواياه ... ؟؟ من هنا ، نستطيع أن نتبين
انتفاء المصلحة الشخصية للسلطان محمد الفاتح من
قتل أخيه .

ولننتقل الآن الى مناقشة الطريقة التي تمت بها
عملية القتل المزعومة ، فقد زعم مروجو هذه الفرية أن
السلطان محمد الفاتح أرسل أحد قواده واسمه علي
بك الى جناح النساء لقتل أخيه الرضيع ، فلما علم علي
بك أن الطفل موجود في حمام النساء حيث تقوم مربيته
بغسله ، اقتحم الحمام وأمسك بالطفل الرضيع وغطسه
تحت الماء حتى مات مختنقا غرقا .

أي سخف هذا ... وأي هراء ... ؟

وهل يصدق عاقل أن محمداً الفاتح ، وهو الذكي المحنك ، يقدم على قتل أخيه الرضيع بهذه الصورة المكشوفة الساذجة ... ؟

وهل يصدق عاقل أن محمداً الفاتح كان عاجزاً عن تكليف احدى النساء ، كزوجته ، أو احدى خادماتها ، بتنفيذ عملية القتل من دون اثارة انتباه احد ، بدل ان يرسل رجلا الى جناح النساء وهو أمر غير مألوف ، بله ان يسمح بان يقتحم هذا الرجل حمام النساء ، حيث يكن فيه متحللات من حجابهن ، ومتخففات من كثير ملابسهن ، وفي ذلك ما فيه من خروج مستهجن عن المألوف ، من شأنه لو تحقق فعلا أن يثير من هياج النساء ، وضجيجهن ، وصخبهن ، ما يضطر ذلك الرجل الى الفرار قبل أن ينفذ مآربه ، مهما بلغت به الجرأة والنذالة ؟؟ اذن ، ما هي حقيقة هذه الفرية....؟؟

الحقيقة هي ان المربية التي كان موكلا اليها أمر العناية بالطفل الرضيع احمد ، انشغلت لبعض شأنها بينما كانت تغسله ، فوقع في حوض الماء ، فمات مختنقاً غرقاً قبل أن تتداركه الايدي التي امتدت لانقاذه بعد فوات الاوان .

وما كاد خبر غرق الطفل الرضيع احمد يسري بين الناس ، حتى وجد فيه الحاقدون متنفساً يبثون من خلاله حقدهم ، فطفقوا يشيعون بأن السلطان قتل اخاه الرضيع خشية ان يزاحمه على السلطنة ،وتصادف بعد ذلك بأيام قليلة ان احد ضباط الجيش واسمه علي بك ارتكب جريمة عقابها الاعدام . فلما اعدم ، وجد الحاقدون مادة جديدة خيل اليهم انها تدعم بهتانهم ، فطفقوا يزعمون ان علي بك هو الذي أغرق الطفل الرضيع احمد ، وان السلطان محمد الفاتح خشي ان يفشي هذا الرجل سره ، فقتله ، ومن هنا جاءت الفرية على النحو الذي انتشرت اليه ، وينبغي الاشارة الى ان ادوارد سي كريسي يتبنى هذا الزعم في كتابه « تاريخ العثمانيين الاتراك » المطبوع بالانجليزية في بيروت في عام ١٩٦٦ ، ويدعي ان السلطان الفاتح اقدم على قتل الضابط علي بك متهماً اياه بقتل أخيه الرضيع دون ان يكون للسلطان علم بذلك .

الا ساء ما يفترون وتبت يدا كل من يجري قلمه ، او لسانه بهذا البهتان اللئيم .

ولو ان الحاقدين توقفوا عند هذه الفرية وحدها لهان الأمر ، ولكنهم ما برحوا أن بدأوا ينسجون من حولها المزيد من الافتراءات ، فزعموا ، وبئس ما زعموا، ان محمدا الفاتح ، أنعم به من فاتح ، لم يكتف بقتل أخيه ، بل أصدر قانونا ترفده فتوى شرعية مزعومة ، أعطى للسلطان الحق في قتـــل من يشاء من اخوته وأبنائه وأبناء عمومته وخؤولته ، لقطع الطريق على أي منهم أن ينافسه على السلطنة .

ولقد كنت في موضع آخر من هذا الكتاب قد فندت هذه الفرية ، بيد أن بشاعة هذه الفرية وخبثها تجعلني أعود من جديد لتأكيد بطلانها ، ذلك ان القانون الذي أصدره السلطان محمد الفاتح ، ودعمته فتوى شرعية من علماء المسلمين ، لم يكن على هذا النحو الذي يزعمه المغرضون ، وانما كان تأكيدا لحكم الاسلام في كل من يخرج عن طاعة ولي الأمر ، أو يوالي الكافرين ضد المسلمين ، أو يثير الفتنة بين المسلمين .

ولقد أوضح المؤرخ التركي المعاصر اسماعيل حامي دانشمند في كتابه « موسوعة التاريخ العثماني » الدافع

السلطان محمد الفاتح يصدر هذا القانون

لماذا ؟

حين وجد السلطان محمد الفاتح ان اكبر خطر كان يهدد الدولة العثمانية في الفترة التي سبقت توليه السلطنة ، نجم عن تكرار حوادث الانشقاق التي كانت تقع بين الامراء العثمانيين والتي كانت تصل في اكثر الاحيان الى درجة الاقتتال ، وتؤدي الى انقسام الدولة الى فريقين او اكثر ، مما كان يؤثر على وحدة الدولة ويغري خصوم الاسلام بها ، فقد رأى السلطان محمد الفاتح ، ان يضع قانونا أسماه « قانون حفظ النظام للرعية » ، اكد بموجبه ان الموت سيكون مصير كل من يعلن العصيان المسلح ضد السلطان ويتعاون مع اعداء الاسلام ضد المسلمين .

ويرى اسماعيل حامي دانشمند ، ان هذا القانون كان سببا في انحسار ، او على الاقل في تقليص حوادث العصيان المسلح ، التي كادت ان تصبح امرا شائعا في الدولة العثمانية قبل صدور هذا القانون .

وان المرء لتتملكه الدهشة ، حين يرى ان كل دول الدنيا ، قديمها وحديثها ، لا تخلو قوانينها من مثل هذا القانون ، ومع ذلك فلا تجد أحداً يعترض عليها أو يشوه مقاصدها كما يفعل المغرضون تجاه الدولة العثمانية ...!

## ما هي حقيقة الفرية التي تزعم أن الأتراك العثمانيين لـم يكونوا أمة دعوة ، وهدايـة ، وحضارة ، وإنما كانوا أمة حرب وقتال ..

يشتد الأسى في قلب المسلم حين يرى أن معظـم أجيالنا المسلمة ما فتئت تقرأ في مناهج التاريخ في معظم مدارس ، ومعاهد ، وجامعات وطننا العربي والإسلامي ، أن العثمانيين الأتراك لم يكونوا أمة دعوة ، وهداية ، وحضارة ، وإنما كانوا مجرد مقاتلين تحجرت العواطف الإنسانية في قلوبهم ، وأعمت أبصارهم شهوة القتـل والتدمير ، فانطلقوا يقتلون ، ويذبحون ، ويشردون الأمم والشعوب ، من غير أن يردعهم وازع من شعور إنساني ، أو ضمير ، أو دين .

أما أن الأتراك العثمانيين كانوا أمة قتال وحرب ، فتلك حقيقة لا ننكرها ، ولا نماري فيها ، فقد اعترف ببسالة الأتراك الأعداء قبل الأصدقاء ، قديماً وحديثاً .

واما انهم كانوا يحبون القتال ارهاباً ، وافساداً في الارض ، فذلك هو البهتان العظيم الذي ننكره ، وننفيه ، ونبرئ الاتراك العثمانيين منه .

لقد انطلق الاتراك العثمانيون في جميع حروبهم الهجومية والدفاعية من منطلق اسلامي بحت ، فقد كانوا كما ذكرنا في صفحات سابقة من هذا الكتاب يعتبرون أن نشر دين الله في الأرض ، وهداية الناس اليه ، هو من اهم واجباتهم ، ولقد حرصوا على ان يقوموا بهذا الواجب ضمن الحدود التي وضعها الاسلام، فكانوا يخيرون البيزنطيين بين الاسلام أو الجزية ، أو الحرب ، ولكن اصرار البيزنطيين على الحرب كان يدفع العثمانيين اليها دفعا ، لا حبا في القتال من أجل القتال، وانما جهاداً في سبيل الله عز وجل نشراً لدينه واعلاء لكلمته .

وانا لنلمس هذا الفهم الاسلامي الصافي لمفهوم القتال عند العثمانيين الاتراك من خلال مطالعتنا لرسالة البشرى التي بعث بها السلطان محمد الفاتح للزعامات الاسلامية المعاصرة له ، يبشرهم فيها بفتح القسطنطينية. ففي رسالته الى سلطان دولة المماليك الشراكسة في

عصر السلطان اينال شاه ، التي تسلمها في الثــالث والعشرين من شهر شوال من عام ٨٥٧ هـ وفق السابع والعشرين من شهر تشرين الاول من عام ١٤٥٣ م ، كما يروي المؤرخ المصري ابن تغري بردي في كتــابه « حوادث الدهور » ، يقول السلطان الفاتح :

ان من احسن سنن أسلافنا ، انهم مجــاهدون في سبيل الله عز وجل ، ولا يخافون لومة لائم ، واننا على هذه السنة قائمون ، وعــلى تلك الأمنية دائمون ، ممتثلين بقوله تعالى « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله » ، ومستمسكين بهدي نبينا صلى الله عليه وسلم « من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار » .

ويستطرد السلطان الفاتح في رسالته قائلا :

ولهذا فقد همنا هذا العام ، معتصمين بحبل الله ذي الجلال والاكرام ، ومستمسكين بحبل الملك العلام، الى اداء فرض الغزاء ( من الغزو ) الذي فرضه علينــا الاسلام ، مؤتمرين بأمره تعالى « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » ، وقد جهزنا عساكر المجاهدين من البر والبحر ، لفتح مدينة ملئت فجورا وكفرا ، وبقيت لمدة طويلة وسط الممالك الاسلامية تباهي بكفرها فخرا » .

ونلمس الروح الاسلامية الصادقة في اقبال الاتراك العثمانيين على القتال ، ونحن نطالع نص دعاء السلطان مراد بن أورخان في الليلة التي سبقت معركته الحاسمة ضد التحالف الصليبي في منطقة « قوصوه » ، والذي نقله المؤرخ التركي خوجا سعد الدين في كتابه « تاريخ التواريخ » ، والذي نقتبس منه هذه العبارات :

« يا الهي ، انني أقسم بعزتك وجلالك انني لا ابتغي من جهادي هذه الدنيا الفانية ، ولكنني ابتغي رضاك ، ولا شيء غير رضاك .

يا الهي ، لقد شرفتني بان هديتني الى طريق الجهاد في سبيلك ، فزدني تشريفا بالموت في سبيلك » .

* * *

أما في حروبهم الدفاعية ، فقد كان العثمانيون الاتراك ينطلقون لخوضها من منطلق اسلامي واضح ، استوحوه من قول الله عز وجل :

« يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار » .

ن الذين يتهمون الأتراك العثمانيين بانهم كانوا
ة قتال وحرب ، وانهم لم يتركوا وراءهم في البلدان
التي رفعوا رايتهم فوقها أية بصمات حضارية ، بل
تركوها بقصص الطغيان والظلم والحرمان ، يتناسون،
وهم في حمأة حقدهم يعمهون ، أن العثمانيين الأتراك
كانوا يواجهون ركام قرون طويلة من الاحقاد الصليبية
التي لم ينقطع أوارها ، ولم تفتر مؤامراتها ، طوال
مدة حكم الدولة العثمانية .

والي لاعجب ، كيف لا يكون الأتراك العثمانيون
لة قتال وحرب ، وهم الذين كانوا يواجهون أحقادا
صليبية أقض مضاجعها اعتناقهم للاسلام ، وزلزل
الأرض من تحت أقدامها . ويبلغ من شدة هذه الأحقاد
أن ينطلق لسان أحد سدنتها المستشرق الالماني فولدكه،
معلنا في مقال نشره في مجلة « دار اسلام » الالمانية في عام
١٩٢٤ ، أن دخول الأتراك في الاسلام كان أكبر نكبة
في التاريخ .

وينقل أمير البيان شكيب أرسلان في تعليقاته على
كتاب حاضر العالم الاسلامي ، عن المؤرخ «جوفارا» ،

وهو وزير روماني سابق ، قوله في كتاب « مئة مشروع لتقسيم تركيا » :

ان أصل العداوة المزمنة التي يشعر بها الاوروبيون للاتراك ترجع الى العداء الشديد الذي يكنه النصارى للاسلام .

وقد بلغ الحقد مداه في قلب راهب دومينيكاني اسمه غليوم دادان ، فألف كتابا في عام ١٣١٤ م اطلق عليه عنوان « كيفية استئصال المسلمين » . دعا فيه نصارى أوروبا الى غزو الامبراطورية البيزنطية الارثوذكسية ، وتحويلها الى مملكة لاتينية ، ودعمها بكل قوة لتقف في وجه المد التركي الاسلامي ، ولتكون منطلقا للانقضاض على الأتراك المسلمين في الاناضول التركي لاستئصال شأفتهم نهائيا » .

ونلمس الحقد الصليبي ضد العثمانيين في اقدام البابا بيوس الثاني على عقد مجمع شارك فيه ملوك أوروبا في عام ١٤٥٨ م قرروا فيه تشكيل حلف صليبي لمحاربة العثمانيين . كما نلمس الحقد الصليبي ضد الأتراك العثمانيين ، في بيان الملك الفرنسي لويس الحادي عشر الذي نشره في عام ١٤٧٨ م والذي يقول فيه :

، اني ابتهل الى مريم العذراء المجيدة ان تضع
في قلب ابني العزيز كارلس شرفا عظيما وذلك بان تمكنه من
الذهاب بنفسه الى الشرق ، ومعه نبلاء فرنسا وفرسانها،
لقتال ، التركي ، المكروه وغيره من الجاحدين » .

ولا يلبث كارلس الثامن ان يتجاوب مع رغبة
لويس العاشر ، فينشر منشورا يقول فيه :

« انا اقتداء بآبائنا ملوك فرنسة المسيحيين
الصادقين ، نريد ان نضع بكل ما اوتينا من قوة حداً
للويلات الكثيرة التي يرتكبها « الاتراك » بحق الديانة
المسيحية . وقد اخذنا على انفسنا عهدا ان لا نبخل
بانفسنا ولا بشيء من امكانياتنا في دفع هؤلاء
الطواغيت « الاتراك » عن الممالك التي انتزعوها من
ايدي المسيحيين » .

وفي عام ١٥١٣ م خاطب الملك لويس الثاني عشر
النواب الفرنسيين المجتمعين في مدينة « ماليز » قائلا :

انا بالاتفاق مع سائر ملوك المسيحيين نفكر في
حملتنا المحمودة المقدسة على « الترك » .

وفي عام ١٥٣٠م نشر المفكر الهولندي ايراسم نداء الى ملوك أوربا يدعوهم فيه لحرب الأتراك ، وجاء في النداء قوله : ان المسيحي لا يمكنه أن يعيش اذا لم يصرع « الترك » .

وفي عام ١٥٣٣ م نشر الراهب الهولندي لابنوس نداء خاطب فيه نصارى أوربا قائلا : ان محاربة المسلمين أصبحت ضرورة من الضرورات لا مناص فيها ، فاذا لم نحارب « الترك » نحن ، فانه سيأتي هو ليحاربنا ، فلا بد اذا من ان يتفق جميع النصارى لمحاربة « الترك » وابادتهم .

وفي عام ١٥٤٢م وزعت في بلجيكا نشرة موجهة الى نصارى اوربا تدعوهم الى الاتحاد والزحف نحو « الاتراك » لقهر تلك الأمة الجاحدة .. !

وفي ٢٥ ايار من عام ١٥٧١ م اعلن البابا بيوس الخامس عن قيام حلف صليبي يضم البابا وملك اسبانيا فيليب وجمهورية البندقية لحرب « الاتراك » واسترداد جميع المواقع التي احتلوها .

وفي عـــام ١٦١٩ م نشر الأب يوسف مستشار الكاردينال ريشيليو كتابا بعنوان « كيف تقهر الأمة

التركية المتعولة » . ونشر قصيدة عنوانها « التركية » قال فيها ان امنيته الوحيدة أن ينجح في اجبار الأتراك القاسي على اعتناق المسيحية .

وفي عام ١٦٢٠ م وضع دوبريف سفير فرنسا في اسلام بول خطة قدمها لملك فرنسا هنري الرابع كان عنوانها : « خلاصة بحث في أضمن الطرق لمحو سلطنة آل عثمان » .

ولم يتورع نصارى أوربا عن انتهاج أي سبيل ، شريف ، وغير شريف ، في الكيد ضد الأتراك العثمانيين، ومن امثلة ذلك ما قام به الكاردينال سيزاريني الذي بعث به البابا لاقناع ملك المجر لاديسلاس بالمشاركة في حلف مقدس ضد الأتراك . فلما أبلغه لاديسلاس انه اقسم على الكتاب المقدس أن يرعى معاهدة الصلح التي عقدها مع السلطان مراد . استشاط الكاردينال سيزاريني غضبا . وأمر الملك لاديسلاس بنقض المعاهدة التي لم يمض عليها أكثر من خمسين يوما فقط . مؤكداً له أن الالتزام بالعهود مع المسلمين خطيئة . وأن حنثها فضيلة . وأن قسمه على الانجيل لا يلزمه بشيء تجاه الأتراك الجاحدين .

ان الذين يتهمون الأتراك بأنهم لم يعرفوا طوال فترة حكمهم غير القتال والحرب ، يتناسون انهم كانوا هدفا للأحقاد الصليبية على مدى الستة قرون التي حكمت فيها دولتهم . وفي هذا الصدد يذكر الدكتور احسان حقي في تعليقه على كتاب « تاريخ الدولة العلية العثمانية » للاستاذ محمد فريد بك المحامي ، ان الغربيين ( النصارى ) اشغلوا العثمانيين في حروب متواصلة ، فصرفوهم عن الاهتمام بشؤون دولتهم الحضارية .

ويذكر امير البيان شكيب ارسلان في تعليقاته على كتاب حاضر العالم الاسلامي ، ان الأتراك العثمانيين واجهوا على مدى فترة حكمهم مائة خطة صليبية للاجهاز على الدولة العثمانية . وقد قام المؤرخ الروماني «جوقارا» وهو وزير روماني سابق ، بقضح هذه الخطط في كتاب اطلق عليه اسم « مئة مشروع لتقسيم تركيا » . وقام امير البيان بسرد هذه الخطط المئة بشكل موجز في تعليقاته .

وينبغي ان نشير الى ان هذه الخطط المئة لم توضع جميعها موضع التنفيذ ، بل ان بعضها ولد ميتا ، ولكن

الخطط التي وضعت موضع التنفيذ كانت ذات خطورة بالغة .

ويمكننا القول ان أول حلف صليبي واجهته الدولة العثمانية كان في المراحل المبكرة لتأسيسها ، عندما تنادى امراء بورصة ومادانوس وادره نوس وكته وكسله البيزنطيون في عام ٧٠٠ هـ وفق ١٣٠١ م لتشكيل حلف صليبي لمحاربة عثمان بن ارطغرل مؤسس الدولة العثمانية . ولكن عثمان تمكن من تشتيت الجيوش الصليبية في موقع يقال له ديننبوز ، بيد ان هذه الهزيمة لم تفت في عضد البيزنطيين ، فعادوا بعد سنوات قليلة في عام ٧٠٩ هـ ــ ١٣٠٩ م ، متحالفين مع المغول ، للانقضاض على الدولة الفتية ، فسارع عثمان الى ارسال ابنه اورخان لمواجهة جيوش هذا الحلف الصليبي ــ المغولي ، ولينزل نصر الله على المسلمين ، وانهزم المتحالفون .

في عام ٧٦٦ هـ ــ ١٣٦٥ م عقد ملوك وأمراء الصرب والبلغار والمجر حلفاً صليبياً مقدساً حظي بمباركة البابا اوربيان الخامس ، تعاهدوا بموجبه على محاربة الأتراك حتى يقضوا عليهم قضاء مبرماً .

والجميع لهذا الحلف مئة ألف مقاتل بقيادة ملك المجر لويس ، وملك الصرب أوردش ، ولكن مكر الله كان أقوى من مكر المتحالفين ، فهزمتهم الجيوش العثمانية الاسلامية على مقربة من نهر مريج ، وبلغ من شدة هلعهم أن عشرات الآلاف منهم قذفوا بأنفسهم في نهر مريج طلبا للنجاة ، فغرقوا في مياهه .

ولم يمض على هزيمة ذلك الحلف الصليبي أربع سنوات حتى قام حلف صليبي جديد بقيادة الأمير الايطالي الأصل اميديو ، الذي نجح في تجميع جيش من الفرسان الايطاليين تحت شعار الانتقام للصليب من الأتراك المسلمين ، ولكن في عام ٧٧٠ هـ - ١٣٦٨ م من استرداد مدينة غاليبولي من العثمانيين ، وسلمها الى البيزنطيين ، الذين ارتفعت معنوياتهم ، وراودتهم من جديد أحلامهم السابقة في القضاء على الأتراك العثمانيين ، فسارع الامبراطور يوانيس الخامس بالذهاب الى روما في عام ٧٧١ هـ - ١٣٦٩ م ، وقابل البابا أوربانوس الخامس ( أوربيان الخامس ) ، وطلب منه المساعدة للوقوف في وجه الخطر الاسلامي المتمثل في العثمانيين .

وحتى خشي الامبراطور يوالبيس الخامس ان يسأل البابا الكاثوليكي عن نصرة بيزنطية الارثوذكسية، بادر الى اعلان تحوله عن العقيدة الارثوذكسية الى العقيدة الكاثوليكية البابوية خلال قداس خاص حضره البابا ، واربعة من الكرادلة ، وجمع غفير من القسس والرهبان ، في اليوم الثامن عشر من تشرين الاول من عام ١٣٦٩ م .

وكان من الطبيعي ان يتجاوب البابا اوربانوس الخامس مع استغاثة امبراطور بزنطية ، فاطلق نداء الى جميع ملوك وامراء اوربا الكاثوليكية ، يدعوهم الى عقد حلف مقدس جديد ضد العثمانيين ، محذراً اياهم من خطر اجتياح العثمانيين المسلمين لاوربا النصرانية كلها . واسفرت جهود البابا الى عقد حلف صليبي جديد في عام ٧٧٢ هـ - ١٣٧٠ م . انضوى تحت رايته حوالي ستين الف مقاتل بقيادة ملك الصرب الجديد « دوقاشين » . ولكن الله عز وجل رد كيدهم الى نحورهم ، فهزمتهم الجيوش العثمانية بعد معركة عنيفة في مقربة من سيفول بلدة صسافو ، ولكن هذه الهزيمة لم تفت في عضد المتحالفين ، اذ سرعان ما اعتدى ملك

الصرب الجديد لازار على الحامية العثمانية في « بني بازار » ، واستولى عليها ، ولكن الجيوش العثمانية تمكنت من استعادتها ، فاضطر لازار الى عقد معاهدة صلح مع العثمانيين في عام ٧٧٧ – ١٣٧٥ م . ولم يلبث أن لحقه ملك البلغار شيشمان ، فوقع معاهدة صلح مع العثمانيين في عام ٧٧٨ هـ – ١٣٧٦ م . ثم لحقهم امبراطور بيزنطية القسطنطينية بالا أولوغوس الرابع، فوقع معاهدة صلح مع العثمانيين في عام ٧٨١ هـ – ١٣٧٩ م .

وعلى الرغم من توقيع تلك المعاهدات ، فان نيران الاحقاد الصليبية كانت تتفاعل بعنف في نفوس الصليبيين ، الذين كانوا يتحينون الفرص لينفثوا احقادهم ضد العثمانيين المسلمين ، ولم تلبث الفرصة أن واتتهم في عام ٧٩١ هـ – ١٣٨٩ م ، فأعلن ملك الصرب لازار، وملك البلغار شيشمان ، نقضهما لعهدهما مع العثمانيين . فسارع السلطان مراد لمواجهة ملك البلغار شيشمان ، فهزمه واسره ، وحين وصل خبر هزيمة شيشمان الى ملك الصرب لازار ارتبك ، واهتزت معنوياته ، فسارع الى الاستنجاد بامراء البوسنة ،

والهرسك ، والأولاخ ، وبعض أمراء الأرناؤوط ، فتجمع
لديه قوات ضخمة سار بها لملاقاة العثمانيين الذين
تمركزوا في منطقة قوصوه ، حيث وقعت معركة حاسمة
أسفرت عن تنزل نصر الله عز وجل على المسلمين واندحار
الصليبيين ، ووقوع لازار في الأسر .

وفي عــام ٧٩٦ هـ ـ ١٣٩٤ م ، واجهت الدولة
العثمانية خطراً جديداً تمثل في نجاح البابا بونيفاسيوس
التاسع في تشكيل حلف صليبي يصفه كارل بروكلمان
بأنه كان يمثل عملية احياء للفكرة الصليبية التي كان
الأوربيون قد نسوها في الظاهر ، وقد انتظم في هــذا
الحلف ملك المجــر سيجســمونـد ، ودوق برغونديــا
الفرنسي ، وابنــه الكونت دي نيفر ، وأمير بافاريــا
( ألمانيــا ) ، وأمير استوريا ( النمســا ) ، وفرسان
القديس يوحنا الأورشليميين الذين كانوا يتخذون من
جزيرة رودس قاعدة لهم ، ووقعت المعركة الحاسمة
بين الصليبيين وبين الجيش العثماني بقيادة الســلطان
بايزيد الصاعقة ، على مقربة من نيكوبولي ، وأسفرت
عن انتصار المسلمين ، ووقوع عدد كبير من أمراء أوربا
وفرسانها في الأسر ، ولكن بايزيد أفــرج عنهم بعد أن

أقسموا أمامه بأن لا يعودوا الى محاربة المسلمين ثانية ثم عاد فأطلقهم من قسمهم قائلا لهم :

اذا رغبتم في العودة لحربنا، فتعالوا حينما تريدون. فوالله لا شيء أحب الينا من محاربة جميع نصارى أوربا والانتصار عليهم .

ولم يكد بايزيد يقضي على خطر ذلك الحلف الصليبي ، حتى جاء القدر بخطر جديد تمثل في اجتياح تيمورلنك ، بتحريض من نصارى أوربا ، للأناضول التركي . ووقعت المعركة الحاسمة في سهل شوبوك أوفا في يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر ذي الحجة من عام ٨٠٤هـ ( ٢٨ تموز ١٤٠٢ م ) ، وأسفرت عن هزيمة ساحقة للعثمانيين . تهللت لها أسارير نصارى أوربا ، فسارعوا الى اعلان تمردهم على الدولة العثمانية، فأعلن ملك الصرب لازار نقضه لمعاهدة الصلح التي عقدها مع العثمانيين ، ثم تبعه في ذلك ملك البلغار، ثم أمير الفلاخ .

وبعد وفاة بايزيد ، خلفه ابنه محمد جلبي الذي بذل جهودا كبيرة للتصدي لأكثر من مؤامرة استهدفت

بقضاء على الدولة العثمانية ، وقد نجح محمد جلبي في استعادة شيء من هيبة الدولة العثمانية التي اهتزت في هزيمة بايزيد أمام تيمورلنــــك ، ولما توفي محمد جلبي ، ولي الســلطنة ابنه مراد الثاني ، فأكمل مسيرة أبيه في استعادة هيبة الدولة العثمانية ، لكنه واجه خطرا جديدا تمثل في قيام حلف صليبي جديد انتظم أمير بلاد الفلاخ الملقب بالشيطان ، وملك المجر ، وأمير الصرب ، ولكن السلطان مراد الثاني تمكن من هزيمة جيوش هذا الحلف الصليبي في عام ٨٣٩ هـ - ١٤٣٦م. ويبدو أن هذه الهزيمة لم تفت في عضد أمير الصرب جورج برنكوفتش ، الــذي سرعان ما عاد ليعلن العصيان من جديد ، فسار إليه السلطان مراد ، ففر برنكوفتش والتجأ إلى حليفه الجديد الملك لاديسلاس الذي خلف الملك سجسموند على عرش المجر ، ووقعت المعركة الحاسمة في عام ٨٤٦ هـ - ١٤٤٢ م ، وانتصر الجيش الصليبي بقيادة القائد المجري الشهير هونياد ، واستشهد في المعركة عشرون ألف مسلم ، ووقع عدة آلاف مسلم في الأسر ، فأمر هونياد بقطع رؤوسهــم جميعا ، وبنى من جماجمهم عدة أهرامات .

وفي العام التالي ٨٤٧ هـ ـ ١٤٤٣ م ، واجه العثمانيون خطراً آخر تمثل في انتصار هونياد على جيش عثماني قوامه ثمانون ألف مقاتل ، بعد معركة ضارية قرب مدينة « يالو واز » ويبدو أن هذين الانتصارين أغريا هونياد فقرر مهاجمة السلطان مراد نفسه ، وتمكن من هزيمته بعد معركة ضارية على مقربة من مدينة نيش ، فاضطر السلطان مراد الثاني الى عقد معاهدات صلح مع ملوك وأمراء الصرب والمجر والفلاخ ، تنازل لهم بموجبها عن كثير من المناطق التي كانت خاضعة للدولة العثمانية ، بيد أن هذه المعاهدات لم يدم مفعولها طويلاً ، اذ ان أخبار انتصارات هونياد المتوالية ضد العثمانيين حركت أطماع بابا روما في القضاء على الأتراك العثمانيين المسلمين ، فسارع الى ارسال الكاردينال لاديسلاس الى ملوك وأمراء الصرب والمجر والفلاخ ، لتحريضهم على تشكيل حلف جديد للقضاء نهائياً على الدولة العثمانية ،وحين علم الكاردينال سيزاريني أنهم قد عقدوا معاهدات صلح مع العثمانيين، استشاط غضباً ، وأجبرهم على نقض المعاهدات مؤكداً لهم أن الوفاء مع المسلمين يعتبر خطيئة .

وتمكن الكاردينال سيزاريني من اقنـــاع ملكي المجر والصرب وامير الفلاخ وامير الاولاخ . وامير الافلاق بدخول حلف صليبي جديد ، واصدر البابا اوامره الى الكاردينال كوندولمر قائد الاسطول البابوي بالاتصال مع الامبراطور البيـزنطي يوانيس باليـه اولوغوس ، واقناعه بالانضمام الى الحلف الجديد ، وقامت السفن البابوية باغلاق الممر الفاصل بين آسيا واوربا في منطقة « جناق قلعة » لمنع عبور النجدات العثمانية من البر الآسيوي الى البر الاوروبي . وزاد مـن خطورة هـذا الحلف الصليبي الجديد انضمام الآلاف من الفرسان الالمان والطليان اليه . ووقعت المعركة الحاسمة في ٢٨ رجب من عام ٨٤٨ هـ ( ١٠ تشرين ثاني ١٤٤٤ م ) ، في مقربة من مدينة « وارنة » . وأسفرت عن هزيمة منكرة للصليبيين ، وعن مقتل ملك المجر لاديسلاس ، ومندوب البابا الكاردينال سيزاريني، وفر قائد الحلف القائد المجري هونياد .

ولم تمض سنوات قليلة حتى واجه السلطان محمد الفاتح ، الذي خلف والده مراد ، خطرا جديدا تمثل في اقدام الامبراطور البيزنطي قسطنطين على مناشدة بابا

روما وملوك وامراء أوربا الكاثوليكية لتشكيل حلف صليبي لمحاربة العثمانيين . وأبدى الامبراطور قسطنطين استعداده لتوحيد كنيسته الارثوذكسية بالكنيسة البابوية الكاثوليكية وأراد أن يعبر عن صدق رغبته في توحيد الكنيستين ضد الخطر التركي الاسلامي . فجثم على ركبتيه بين يدي الكاردينال الكاثوليكي «ايزيدور» طالبا بركته في قصره الامبراطوري في القسطنطينية . وعلى مرأى ومسمع رجالات دولته واشرافها . في الثلاثين من شهر ذي القعدة من عام ٨٥٦ هـ ـ ( ١٢ كانون أول ١٤٥٢ م ) .

ويروي الدكتور عبد السلام عبد العزيز فهمي في كتابه « السلطان محمد الفاتح » أن الامبراطور قسطنطين بعث الى البابا برسالة ينذره فيها بأنه اذا لم تسارع أوربا الكاثوليكية لنصرة القسطنطينية ، فان هدف الاتراك القادم سيكون روما ، مركز البابوية ذاتها .

ولكن هذا الخطر لم يلبث أن تلاشى حين جوبه قسطنطين بمعارضة شديدة من رجال الكنيسة الأرثوذكسية الذين رفضوا فكرة توحيد الكنيستين

بعد رئاسة البابا الكاثوليكي . وبلغ من حدة المعارضة في الموقف الآكبر ناطوراس أعلن عن رفضه لتلك الفكرة قائلا :

« انني افضل عمامة المسلم البيضاء ، على قبعة الكاردينال الكاثوليكي الحمراء » .

بيد ان الخطر لم يلبث ان اندلع من جديد في وجه السلطان الفاتح . حين تزعم البابا نقولا الخامس حملة نشطة لتشكيل حلف صليبي مقدس ، وترأس بنفسه مؤتمرا في روما اسفر عن اتفاق ملوك وأمراء أوربا الكاثوليكية على تجميد خلافاتهم ، وحشد جميع طاقاتهم للتصدي للأتراك العثمانيين ، واستنقاذ عاصمة الكنيسة الارثوذكسية ، القسطنطينية ، منهم .

وكان الأمير فيليب الطيب بورجونديا من أشد زعماء أوربا تحمسا لتشكيل الحلف الجديد ، واسفرت جهوده عن اقناع امبراطور المانيا فريدريك الثالث ، وملك فرنسا شارل السابع ، بالانضمام لحلف الجديد . ولكن الحماس لتشكيل هذا الحلف لم يلبث أن خبا اثر وفاة البابا نقولا الخامس في عام ١٤٥٥ م . فحاول خلفه البابا بيوس الثاني أن يعيد

الروح الى ذلك الحلف ، لكنه لم يلق تجاوبا مشجعا من أنصار الحلف المتحمسين كدوق بورجونديا ،وملك فرنسا ، والامبراطور المانيا ، ولم يستجب له غير ملك المجر لاديسلاس الذي جهز جيشا ضخما بقيادة القائد الشهير هونياد ، ثم انضم اليه ملك الصرب جورج برانكوفتش .

وفي منتصف عام ٨٥٩هـ ـ ١٤٥٥م ، باغتت الجيوش الصليبية الحامية العثمانية التي عهد اليها السلطان الفاتح بالمرابطة في المناطق التي تم فتحها من بلاد الصرب ، وتمكن هونياد من التغلب على الحامية العثمانية . فسارع السلطان الفاتح لمواجهة هونياد ، وتمكن من التغلب عليه . واضطر هونياد وحليفه ملك الصرب برانكوفتش الى الفرار .

ولم يكد السلطان الفاتح يقضي على خطر الحلف الصليبي المجري الصربي ، حتى واجه خطراً صليبياً جديداً تمثل في تحالف ملك نابولي الايطالي وزعيم بلاد الأرناؤوط « البانيا » اسكندر بك ، ولكن الفاتح تمكن من هزيمة الجيوش الصليبية .

وفي تلك الاثنـــاء كان فرسان القديس يوحنـا يعدون لنشاطهم الحربي ضد الجـزر والشواطيء العثمانية . فسيَّر الفاتح اسطولا بقيادة يونس باشا تمكن من الحاق الهزيمة بهم . فاضطر قائدهم جاكوس دي ميللي . الذي كان يلقـــب بالأستاذ الاعظم . الى توقيع معاهدة تعهدوا بموجبها بالكـــف عن ايـــذاء المسلمين .

بيد ان الخطر الصليبي لم يلبث ان ظهر من جديد في عام ٨٦٠ هـ ـ ١٤٥٦ م . حين نجح بابا روما في تشكيل قوة صليبية بقيادة الراهب المجري جيوفاني دي كابيستراني . انضم اليها مئات المتطوعين تحت راية الصليب من المانيا وايطاليا . والنمسا . وتمكنت هذه القوة من مساعدة القائد المجري هونياد في صد الهجوم العثماني على بلغراد . مما اضطر السلطان الفاتح الى اصدار اوامـره بالانسحاب من بلغـراد بعد ان تمكن الجيش العثماني من دخولها . ويبدو أن انسحاب العثمانيين الهب حماس الصليبيين . فقاموا بملاحقة الجيش العثماني حتى اوصلوه الى مركز قيادته . وكادوا يقهرون عقبه . لولا ما ابداه السلطان الفاتح من رباطة

باشى الهيت حماس جنوده ، فصمدوا أمام الصليبيين ، ثم اضطروهم الى الانسحاب .

وفي عام ٨٦١ هـ - ١٤٥٧ م ، واجه الفاتح خطرا جديدا تمثل في تحالف ملك نابولي الفونسو الخامس مع زعيم الارناؤوط اسكندر بك، بمباركة البابا الجديد كاليكوس الثالث ، الذي شارك في التحالف بقوة بحرية بقيادة الكاردينال لودوفيتشي ، وقد تمكن المتحالفون من احراز النصر على جيش عثماني بقيادة علي بن افرينوس بك ، واستولى الاسطول البابوي على جزيرتي ليمني وتاشوز . لكن نشوة هذه الانتصارات الصليبية تهاوت أمام الانتصارات التي حققها السلطان الفاتح في شبه جزيرة المورة واليونان .

لكن الخطر الصليبي لم يلبث أن أطل براسه من جديد في عام ٨٦٥ هـ - ١٤٦١ م ، وتمثل في تحالف مملكة طرابزون النصرانية مع الامير حسن الطويل زعيم دولة « اق كويونلو » التي كانت تتخذ من سيواس عاصمة لها . والتي كانت تعتبر نفسها الوريثة الشرعية لدولة الأتراك السلاجقة ، وتزايد خطر هذا

يحث بانضمام البندقية وجنوه اليه بموجب معاهدتين سريتين ، ولكن السلطان الفاتح تمكن من هزيمة حسن الطويل ، ثم يمم شطر طرابزون ففتحها .

وفي عام ٨٦٧ هـ = ١٤٦٣ م ، فوجيء الفاتح بخطر جديد تمثل في قيام حلف صليبي جديد بمباركة البابا بول الثاني ، وانضم الى الحلف ملوك وأمراء نابولي ، والأراغون ، وزعماء جمهوريات البندقية ، وفلورنسا ، وسينى ، ولوكوس ، وزعماء دوقيات ميلانو ، وفراري ، ومودينا ، وسانتي .

وزاد من خطورة الحلف الجديد نجاح البابا في اغراء دولة المماليك ، التي كانت تحكم مصر والشام ، بمد يد العون الى حسن الطويل ليعلن العصيان من جديد ضد الدولة العثمانية بموجب معاهدة سرية وقعها حسن الطويل مع أحد نبلاء البندقية واسمه كاتريخو زينو في ربيع عام ٨٧٥ هـ = ١٤٧١ م ، تعهد حسن الطويل بموجبها بطرد العثمانيين من الاناضول ، وملاحقتهم حتى مضيق الدردنيل ، حيث تتحد قواته هناك مع قوات التحالف الصليبي ، للانقضاض على القسطنطينية ، وطرد العثمانيين منها .

ويمكن القول أن هذا الحلف الصليبي الجديد ، المتعاون مع دولة المماليك ، ومع حسن الطويل ، كان يشكل خطرا ساحقا لا يمكن التقليل من خطورته ، خاصة وأن انضمام جمهورية البندقية اليه ، زوده بقوة بحرية ضخمة تزيد عن ٣٦٠٠ سفينة حربية بقيادة الأميرال بيترو موسينيغو ، وقد تمكن المتحالفون في بداية الأمر من تحقيق بعض الانتصارات ضد العثمانيين . الا أن السلطان الفاتح حقق انتصارا حاسما ضد حسن الطويل في عام ٨٧٨هـ - ١٤٧٣م .

ولقد كان من الطبيعي أن تهتز أوروبا النصرانية عصفا عنيفا لدى سماعها أنباء انتصار السلطان الفاتح . فقد كان ذلك الانتصار ايذانا بفشل مخططاتها في تشكيل جبهة نصرانية . اسلامية ضد العثمانيين ، وايذانا باقتراب الخطر العثماني الاسلامي من أبوابها أكثر من أي وقت مضى . واشتد الحقد بالاميرال بيترو موسينيغو قائد اسطول البندقية والقائد العام للأسطول الصليبي ، فصب جام حقده على مدن انطاكيا ، وازمير ، ومغنيسيا . وركز على مدينة ازمير فهدم جميع مساجدها واحرقها . ولم تسلم

الكنائس من التخريب . واعمــل السيف في رقــاب رجال ، وانتهك الاعــراض ، وارتكب مــن الجرائم الوحشية ضد المسلمين ما لا يخطر على بال ، كما يقول المؤرخ التركي اسماعيل حامي دانشمند .

ويبدو ان انتصار الصليبيين في ازمير وانطاكيا ومطلي قد اغراهم على المضي في هجومهم ضد العثمانيين، فتعاونوا مع فلول امراء سلطنة قرمان ، وتمكنوا من استرداد منطقة ايتسال والسيطرة عليها ، ولكن مقامهم لم يطل بها ، اذ سرعان ما استعادها العثمانيون ، وكان ذلك في عام ٨٧٩هـ ــ ١٤٧٤م .

وما كاد السلطان الفاتح ينجح في ايقاف التقدم الصليبي ، حتى تواردت اليه الانباء عن نكث امير بلاد البغدان ( شمال رومانيا ) لمعاهدة الصلح التي كان قد عقدها مع السلطان الفاتح في عام ٨٥٩ هـ ــ ١٤٥٥م، وامتناعه عن دفع الجزية السنوية للدولة العثمانية . وعن قيام الامير سيتفان الرابع بتجهيز جيش كبــير لمحاربة العثمانيين . فسارع السلطان الفاتح الى ارسال قوة بقيادة سليمان باشا لمواجهة امير البغدان ، ولكن

هذا الأمير تمكن من الإيقاع بالقوة العثمانية في كبي ، وتمكن بسهولة من التغلب عليها بسبب الارهاق الذي كان يعاني منه الجنود ، وتمكن قائدهم سليمان باشا من النجاة بنفسه بصعوبة ، وقام الامير ستيفان باعدام جميع الاسرى المسلمين بوضعهم فوق الخوازيق وهم احياء . وكان ذلك في اليوم التاسع من رمضان المبارك من عام ٨٧٩ هـ وفق السابع من كانون الثاني من عام ١٤٧٤م • واستقبل البابا نبأ انتصار ستيفان بفرح عارم ، وسارع الى منح بركاته للامير ، وانعم عليـــه بلقب « فارس المسيح » •

على أن هزيمـــة سليمان باشا لم تفت في عضد السلطان الفاتح ، بل زادت من عزمه على تاديب«فارس المسيح» ، الامير ستيفان الرابع ، وقرر اتباع خطـــة جديدة فهاجم المستعمرات الجنوية في شمالي البحر الاسود وسيطر عليها ، فانهى بذلك الوجود النصراني في البحر الأسود ، وتمكن من اصابة عصفورين بحجر واحد ، اذ أحكم الحصار من تلك الجهة على بلاد البغدان، ودعم موقفه الدفاعي في وجه امارة موسكو النصرانية التي بدأت في استعراض عضلاتها في وجه الـــدولة

عثمانية ، والتي كان على رأسها الامير الداعية «ايفان
مغبرة» الذي كان متزوجاً من ابنة الامير توماس
شقيق آخر امبراطور بيزنطي قسطنطين الحادي عشر .

وعندما توفي السلطان الفاتح رحمه الله في عام
٨٨٦ هـ - ١٤٨١ م، تنفست أوروبا النصرانية الصعداء
واصدر البابا سكتيوس الرابع أوامره باقامة صلوات
الشكر في جميع الكنائس الكاثوليكية ، وقرعت أجراس
الكنائس ابتهاجاً ، وبدأت الصليبية مرحلة جديدة في
التخطيط للتصدي للأتراك العثمانيين والقضاء عليهم .

وزعم ملك فرنسا كارلس الثامن في عام ١٤٩٤م ،
بمباركة البابا الجديد اسكندر بورجيا اول تحرك
صليبي ضد الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان الفاتح،
الا انه اصطدم بمعارضة ملك نابولي ورئيس جمهورية
البندقية اللذين شكا في نواياه العدوانية ضد بلادهما.
وكان كارلس الثامن يعتبر نفسه الوريث الشرعي
للعرش الامبراطورية البيزنطية بموجب صك وقعه له
الامير البيزنطي اندريه باليولوغ في السادس من تشرين
ثاني من عام ١٤٩٤م ، وكانت خطته ان يستولي على

نابولي ، لينطلق منها الى القسطنطينية ، وقد تمكن فعلا من الاستيلاء على نابولي ، بمباركة البابا اسكندر بورجيا السادس ، وانضم اليه فيما بعد قائد فرسان القديس يوحنا المتمركز في جزيرة رودس ، وأرسل اليه مبعوثا يعلن انضمامه اليه قائلا انه يأمل ان يتمكن أهل الصليب من استئصال شأفة الامة الملعونة ، أمة محمد ، كما ورد في ص ٤٩ من كتاب « مئة مشروع لتقسيم تركيا » الذي ألفه المؤرخ الروماني «جوفارا» .

وكاد الملك كارلس يحقق أغراضه لولا أن بابا روما بدأ يشعر بالريبة تجاه نواياه ، فتحالف مع جمهورية البندقية ، والأمير الفرنسي زعيم الارغوان ، فاضطر كارلس الثامن الى التخلي عن عزمه على غزو القسطنطينية ، وعاد الى فرنسا .

وتجدد الخطر الصليبي ضد العثمانيين في عام ١٥٠٨ م ، عندما دعا البابا يوليوس الثاني ملوك وزعماء أوربا الكاثوليكية الى عقد حلف جديد ضد الاتراك ، ولكن رغبته لم تتحقق الا بعد وفاته ، حين نجح خلفه البابا لاون العاشر في عام ١٥١٥ م في تشكيل حلف

مجلس عقيد انضم اليه امبراطور المانيا مكسيميليان ، وملك انكلترا وملك بولونيا ، ودوق مسكوبيا المسمى بازيل ، وملك فرنسا فرانسوا الاول ، وملك البرتغال. ولكن الحزازات التي كانت محتدمة بين هؤلاء حالت دون قيام اي نشاط عملي ، فاعلن البابا في عام ١٥١٧م هدنة بين ملوك اوربا لمدة خمس سنوات ليتفرغوا خلالها لمحاربة الاتراك. وتصادف ذلك مع ورود الاخبار باستيلاء السلطان سليم على مصر وضمها الى الدولة العثمانية ، فاستشاط ملوك اوربا غضباً ، وسارعوا الى تلبية نداء البابا ، وعلى راسهم ملوك فرنسا واسبانيا وانكلترا والبرتغال والمجر وبولونيا والدنمرك والروسيا ، وشرع المتحالفون في عام ١٥١٩ م بتجهيز جيوشهم ، ولكن موت الامبراطور مكسيميليان الاول في عام ١٥١٩ م وضع حداً لحماسهم ، فانفرط عقدهم .

وشهدت فترة حكم السلطان سليمان القانوني (٩٢٦هـ - ٩٧٤هـ) - (١٥٢٠ م - ١٥٦٦ م) تقلص الخطر الصليبي ، بل ان معظم زعماء اوربا عقدوا معاهدات صلح مع الدولة العثمانية خوفاً وهلعاً . لكن

الأحقاد الصليبية عادت تظهر من جديد في عهد ولده السلطان سليم الثاني ، حيث عقدت جمهورية البندقية حلفا مع مملكة اسبانيا بمباركة البابا بيوس الخامس في عام ٩٧٩ هـ ــ ١٥٧١ م . وتمكنت جيوش الحلف الصليبي من هزيمة الجيش العثماني في معركة بحرية أسفرت عن أسر حوالي ثلاثين ألف جندي عثماني ، والاستيلاء على ١٣٠ سفينة حربية عثمانية بحالة سليمة . وكان لهذا الانتصار الصليبي رنة فرح غامرة في قلوب نصارى أوربا وأعقب هذا الانتصار انتصار آخر في عام ١٥٩٥ م . عندما انهزم جيش السلطان مراد الثالث ابن سليم الثاني أمام الحلف الصليبي الذي تشكل من أمراء بلاد الفلاخ والبغدان وترنسلفانيا ، وملوك المجر والنمسا وامبراطور المانيا . ولم يتوقف خطر هذا الحلف الصليبي الا عندما تمكن السلطان محمد الثالث ابن مراد الثالث من الحاق الهزيمة بالجيوش الصليبية في موقعة ترزت . في عام ١٥٩٦ م.

ويبرز اسم البابا آكليمنضوس الثامن كواحد من أشد البابوات حقدا على الاتراك . فقد استهل عهده فور تسلمه منصب البابوية في عام ١٥٩٢م ، باستنفار

إمبراطور الألماني رودولف ، وملك روسيا ، وأمير ترانسلفانيا سيجسموند ، لحرب الأتراك وأرسل [illegible] كوستا وديا غومبرندا لتحريض العجم على التحرش بالدولة العثمانية .

وفي عام ١٦٠٠م عقد مجمعاً كنسياً ، دعا فيه ملوك وأمراء أوربا لتوحيد جهودهم لمحاربة الأتراك ، واشتط به الحماس ، فأجهش بالبكاء ، وعندما انفض المجمع أرسل الكاردينال ريموندو لاتوري الى فيينا لاستنفار امبراطور النمسا للدخول في حلف صليبي لمحاربة الأتراك ، وبلغ من شدة حماس البابا اكليمنضوس الثامن لفكرة محاربة الأتراك انه دعا البروتستانت لدخول الحلف المقدس ضد الأتراك ، على الرغم من احتدام الخلافات بين الكاثوليك والبروتستانت .

وفي عام ١٦٠١ م اشتط الغضب بالبابا اكليمنضوس اثر مقتل ابن أخيه الجنرال آلدوبراندينى اثناء معركة ضد الأتراك ، فبذل جهداً كبيراً لاقنـاع ملك فرنسا هنري الرابع ، وملك اسبانيا فيليب الثالث ، بتجميد خلافاتهما والدخول في حلف مقدس لمحاربة الأتراك .

وكادت جهود البابا تفلح ، لولا أن ملك فرنسا اكتشف مؤامرة كانت تدبر ضده بتحريض من ملك اسبانيا .

وفي عام ١٦١٤ م واجهت الدولة العثمانية خطرا جديدا عندما بارك البابا بولس جهود الدوق شارل دونفير الذي ينتسب الى العائلة الامبراطورية البيزنطية من جهة جدته ، لتشكيل حلف صليبي جديد ضد الاتراك ينضم اليه خمسة عشر الف مقاتل من اهل المورة ، وبضعة آلاف من الصرب والارناؤوط والبوسنة والهرسك والبلغار والدالما ، وجرت اتصالات مع امير الفلاخ والبغدان وملك اسبانيا وملك فرنسا وجمهورية البندقية للمشاركة في الحلف ، وكادت جهود الدوق شارل دونفير تنجح في تشكيل الحلف بمباركة بابا روما ، لولا ان جمهورية البندقية تراجعت عن الدخول فيه ، فتقاعس بقية الحلفاء ، وانفرط عقدهم .

وفي عام ١٦٥٧ م تمكن اسطول جمهورية البندقية من الاستيلاء على الدردنيل ، وقطعوا عن استانبول جميع الطرق البحرية الموصلة اليها ، ولكن العثمانيين تمكنوا بعد عناء من فك الحصار عن القسطنطينية ودمروا السفن الصليبية .

وفي عام ١٦٦٠ م ، نجح الكاردينال مازارين في إصلاح العلاقات بين ملك فرنسا وملك اسبانيا ، فشكلا حلفاً صليبياً انضم اليه الآلاف من الفرنسيين والاسبان والمالطيين ودول توسكانا ، وبارك البابا هذا الحلف ، وحقق اسطول هذا الحلف نصراً على العثمانيين ، لكنهم لم يلبثوا أن هزموا جيوش هذا الحلف شر هزيمة في معركة « قنديا » .

وفي عام ١٦٦٤ م واجه العثمانيون خطراً جديداً تمثل في تحالف صليبي جديد باركه البابا اسكندر السابع ، وانضم اليه امبراطور النمسا ليوبولد ، وملك فرنسا لويس الرابع عشر ، والكونت الالماني دي كوليني على رأس أربعة وعشرين ألف مقاتل ألماني ، والدوق الفرنسي دي لافوياد ، واندلعت المعركة قريباً من نهر « راب » ، وسميت المعركة باسم « معركة سان جوتار » نسبة الى كنيسة مهجورة وقعت المعركة قريباً منها ، وحقق الصليبيون تفوقاً في المعركة ، لكنهم لم يستطيعوا حسمها نهائياً ، فاضطروا لعقد معاهدة صلح حصلوا بموجبها على بعض المكتسبات الاقليمية ، ولكن ملك فرنسا نقض المعاهدة في عام ١٦٧٠ م وأرسل اسطولاً

بحريا لمحاربة العثمانيين . الا أنه عاد فسحبه بناء على مشورة وزيره كولبر الذي أقنعه بعدم جدوى محاربة العثمانيين منفردا .

وفي عام ١٦٧٢ م واجهت الدولة العثمانية خطرا جديدا تمثل في قيام القائد البولوني سوبيسكي بمهاجمة مدينة لمرج والاستيلاء عليها ، ودحر الجيش العثماني الذي أرسلته الدولة لمحاربته . واستمرت الحرب بينه وبين الدولة العثمانية حتى عام ١٦٧٦ م .

وما كادت الدولة تستريح من الحرب البولونية ، حتى واجهت خطرا جديدا تمثل في حلف روسي - قوزاقي . واستمرت الحرب بين العثمانيين ، والروس وحلفائهم حتى عام ١٦٨١ م ، حيث انتهت بعقد معاهدة رادزين بين الطرفين .

وفي عام ١٦٨٢م واجه العثمانيون الخطر من جديد حين تحالف ملك بولونيا الجديد سوبيسكي مع أمراء بافاريا وساكس ( مقاطعة ألمانية ) ، وبارك البابا هذا الحلف . وتمكنت الجيوش الصليبية من هزيمة جيش عثماني بقيادة قره مصطفى باشا ، فاغرى هذا الانتصار

ملك النمسا ورئيس جمهورية البندقية ورهبان مالطه وملك روسيا ، فاعلنوا انضمامهم بتحريض من البابا الى الحلف المقدس، واقسموا على محو الدولة العثمانية من الوجود . وزاد من خطورة الوضع اقدام ملك فرنسا على قطع علاقاته الدبلوماسية مع الدولة العثمانية ، وتمكنت جيوش الحلف الصليبي من احراز عدة انتصارات ضد الجيوش العثمانية ، في جهات اليونان والمجر والبغدان والمورة ، وحقق الصليبيون نصرهم الحاسم في سهل موهاكز في عام ١٦٨٧ م ، حيث قضوا قضاء مبرما على الجيوش العثمانية التي كان يقودها الصدر الاعظم سليمان باشا . واعقب تلك الهزيمة استيلاء الجيوش الصليبية على مدن بلغراد ونيش وعدد كبير من المدن الاخرى والقلاع . ولم يتوقف هذا الخطر الداهم الذي كان يهدد كيان الدولة العثمانية الا عندما تمكنت الجيوش العثمانية بقيادة الصدر الأعظم كوبريللي مصطفى باشا ، من هزيمة الجيوش الصليبية في عام ١٦٩٠ م . واستعادت منها بلغراد ونيش وجميع المدن والقلاع التي كانت قد استولت عليها .

بيد أن الخطر لم يلبث أن اندلع من جديد في عام ١٦٩٥م عندما قاد امبراطور روسيا الشهير بطرس الأكبر جيشا ضخما لمهاجمة الجيوش العثمانية في بلاد القرم ، وتمكن من محاصرة مدينة « ازاق » بغية فتحها لتصبح منفذا له على البحر الاسود . ولكن هذا الخطر ارتفع بسبب اضطرار بطرس الأكبر الى الانسحاب تحت وطأة الصمود الذي أبدته الجيوش العثمانية .

وفي عام ١٦٩٦ م برز خطر جديد تمثل في هجوم مباغت قام به الجيش النمسوي على الجيوش العثمانية المرابطة في رومانيا . لكن حدة الهجوم انحسرت اثر هزيمة الجيش النمساوي امام العثمانيين في معركة « اولاش » . ولكن القائد الجديد للجيش النمساوي الامير اوجين دي سافوا تمكن من ايقاع هزيمة منكرة بالعثمانيين في عام ١٦٩٧ م أثناء عبور العثمانيين لنهر « تيس » في بلاد المجر . وانتهز بطرس الأكبر امبراطور روسيا مناسبة هزيمة الجيوش العثمانية فهاجم مدينة « ازاق » ، واستولى عليها . ولولا أن الجيش العثماني الذي ارسله السلطان مصطفى خان الثاني بقيادة الصدر الاعظم كوبريللي حسين باشا تمكن من ايقاف

الهجوم النمسوي ، لواجهت الدولة العثمانية خطر الإبادة أمام الخطر الروسي من جهة والخطر النمسوي من جهة أخرى . وقد اضطرت الدولة العثمانية آنذاك، ورغم النصر الذي حققه حسين باشا ضد الجيش النمسوي ، الى ابرام معاهدة « كارلوفتش » في عام ١٦٩٩ م . تنازلت بموجبها عن بلاد المجر ، واقليم ترانسلفانيا للنمسا . وعن مدينة « ازاق » لروسيا، وعن مدينة كاينك واقليمي بودوليا واوكروين لبولونيا، وعن جزيرة المورة للبندقية . وكانت هذه المعاهدة من اسوأ النكسات التي أصيبت بها الدولة العثمانية .

وفي عام ١٧٠٦ م اندلع الخطر من جديد متمثلاً في انتصار بطرس الاكبر على ملك السويد شارل الثاني عشر حليف الدولة العثمانية . وكاد الجيش العثماني يقضي على الجيوش الروسية بقيادة بطرس الاكبر حين حاصرته بقيادة الصدر الاعظم بلطه جي محمد باشا . ولكن عشيقة بطرس الاكبر كاترينا تمكنت من اغواء بلطه جي باشا . ففك الحصار عن الجيوش الروسية . مما انقذها من خطر الابادة التامة ، واعطاها

الفرصة لاعادة التحرش بالدولة العثمانية ، ولكن بطرس الأكبر اضطر الى عقد معاهدة ادرنة في عام ١٧١٣م .

بيد ان الخطر لم يلبث أن تزايد في نفس العام عندما تحالف امبراطور النمسا شارل الثالث مع البندقية وتمكنت جيوش المتحالفين بقيادة الامير اوجين دي سافوا من هزيمة العثمانيين في معركة « بتراوردين » في عام ١٧١٦ م . واعقب ذلك استيلاؤهم على مدينة بلغراد ، واضطرت الدولة العثمانية ازاء ذلك الى توقيع معاهدة « بساروفتش » ، قدمت بموجبها تنازلات جديدة الى النمسا والبندقية .

وفي عام ١٧٣٦ م واجهت الدولة خطرا جديدا تمثل في انتهاز روسيا والنمسا وفرنسا فرصة انشغال العثمانيين في محاربة سلطان العجم نادر شاه . فاعلنت عن تشكيل حلف صليبي جديد ضد العثمانيين . مما حدا بالسلطان العثماني محمود خان الأول الى عقد معاهدة صلح مع نادر شاه للتفرغ لمواجهة خطر الحلف الصليبي الجديد ، وتمكنت الجيوش العثمانية من ازالة هذا الخطر الصليبي بعد احرازها النصر الحاسم في عام ١٧٣٩ م .

وفي عام ١٧٦٢ م ، واجهت الدولة العثمانية خطراً جديداً تمثل في قيام كاترينا الثانية امبراطورة روسيا بمحاولة السيطرة على بولونيا اثر وفاة ملكها أوغست الثالث حليف الدولة العثمانية . فاندلعت الحرب بين الدولتين ، وتمكنت الجيوش الروسية من احراز النصر على جيش عثماني بقيادة الصدر الاعظم محمد أمين باشا في عام ١٧٦٨م ، وتعقب ذلك هزيمة أخرى مني بها العثمانيون أثناء عبور أحد جيوشهم لنهر دينستر في عام ١٧٦٩م ، وأبيد جميع الجنود العثمانيين في تلك المعركة . وأغرت هذه الانتصارات القوى الصليبية الأخرى ، فحاول أهالي شبه جزيرة المورة الثورة ضد الدولة ، وبلغ الغرور مداه حين أعلن الامبراطور الروسي ، القيصرون ، عن عزمه على غزو اسلام بول ذاتها ، القسطنطينية ، ، ولكن هذا الغرور الصليبي لم يلبث أن أخمد بعد أن تمكن الاسطول العثماني من الحاق الهزيمة بالاسطول الروسي في عام ١٧٧١ م ، مما اضطر روسيا الى القبول بعقد هدنة في مدينة جورجيو البلغارية، ولكن الامبراطورة كاترينا الثانية نقضت الهدنة في عام ١٧٧٣م .فاندلعت الحرب من جديد،وأحرز العثمانيون

النصر على الروس في معركة خسر فيها الروس ثمانية آلاف قتيل على مقربة من مدينة ساستيريا القريبة من بخارست عاصمة رومانيا . ولكن تلك الهزيمة لم تفت في عضد روسيا القيصرية التي كانت تعتبر نفسها وريثة بيزنطية في زعامة الكنيسة الارثوذكسية . فعمدت الى تحريض والي مصر علي بك للثورة ضد الدولة العثمانية . وقام قائد الاسطول الروسي في البحر الابيض المتوسط بامداده بكميات كبيرة من الاسلحة والذخيرة . مما امكنه من الاستيلاء على غزة ونابلس والقدس ودمشق . وانضم الى علي بك في اعلان التمرد والي عكا الشيخ ظاهر . وتمكن الحليفان بمعاونة الاسطول الروسي الفعلية من هزيمة الاسطول العثماني في صيدا . وانضم ٤٠٠ جندي روسي الى علي بك لمساعدته على احكام سيطرته على مصر . ولكن القائد محمد بك ابو الذهب الذي بقي على ولائه للدولة العثمانية تمكن من هزيمة علي بك وقضى على خطره .

وما كاد العثمانيون يقضون على خطر التمرد الذي باركته روسيا في مصر وفلسطين والشام ، حتى عادت روسيا في عام ١٧٧٤م الى التحرش بالدولة العثمانية .

زحف الفيلد مارشال رومانزوف نحو وارنة فاحتلها بعد ان هزم الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم محسن زاده ، الذي خشي من الهزيمة فاضطر الى طلب هدنة أسفرت عن عقد معاهدة « قينارجة » . قدمت الدولة العثمانية بموجبها مزيداً من التنازلات لروسيا، بل وتعهدت بموجب بند سري في المعاهدة بدفع غرامة حربية لروسيا . وكانت هذه المعاهدة نكسة سياسية هزت هيبة الدولة العثمانية . واغرت بها القوى الصليبية الاخرى ، بل ان روسيا ذاتها نقضت المعاهدة بعد عدة شهور من توقيعها حين استولت جيوشها على بلاد القرم التي نصت المعاهدة على استقلالها تحت الحماية العثمانية . واشتطت في تحديها ، فأبرمت مع النمسا حلفاً سرياً اتفقا بموجبه على مهاجمة اسلام بول، واعادة احياء الامبراطورية البيزنطية، وتعيين الغراندوق الروسي الارثوذكسي قسطنطين بن بولس امبراطوراً عليها .

وفي عام ١٧٨٧ م بلغ الخطر الصليبي مداه حين قامت الامبراطورة كاترينا الثانية بجولة في بلاد القرم ، حيث قابلت اتناسطا ملك بولونيا ، وامبراطور النمسا ،

واتفقت معهما على تشكيل حلف صليبي مقدس ضد الاتراك . ومشى الثلاثة في موكب حافل ومروا من تحت لافتة كتب عليها « الطريق الى بيزنطية» وبدأ المتحالفون نشاطهم الحربي بهجوم كاسح قام به القائد الروسي الجنرال بوكمكين على مدينة أوزي ، واستيلائه عليها ، وحاول امبراطور النمسا يوسف الثاني الاستيلاء على مدينة بلغراد ، ولكن الجيش العثماني تمكن من هزيمة الجيش النمسوي ، ولكن هذه الهزيمة لم تفت في عضد المتحالفين الصليبيين الذين صعدوا هجومهم ضد العثمانيين فاحتلوا مدينة بندر ، ومعظم الفلاخ والبغدان وبسارابيا ، ونجحوا في الاستيلاء على بلغراد وأعادوا سيطرتهم على بلاد الصرب .

وفي تلك الاثناء حدثت مفاجآتان كان لهما أكبر الاثر في ازاحة الخطر عن الدولة العثمانية . فقد توفي امبراطور النمسا فجأة ، وتصادف ذلك مع قيام الثورة الفرنسية ضد الملك لويس السادس عشر ، فاضطر الملك النمسوي الجديد ليوبولد الثاني الى تجميد نشاطه الحربي في الحلف ، لينشغل في اتخاذ الترتيبات لحماية بلاده النمسا من خطر امتداد لهيب الثورة

فرنسية اليها ، وكان في مقدمة هذه الترتيبات عقد معاهدة «ستوفا» في عام ١٧٩٠م مع الدولة العثمانية، وبذلك زال خطر التحالف الروسي النمسوي نهائيا عن الدولة العثمانية .

وفي عام ١٧٩٨ م واجهت الدولة العثمانية خطرا جديدا تمثل في قيام نابليون بونابرت بأمر من قيادة الثورة الفرنسية بغزو مصر ، وتمكن من الاستيلاء عليها . ولكن العثمانيين سارعوا لمواجهة هذا الخطر ، وتحالف معهم في ذلك الد اعدائهم من روس ونمساويين وانكليز ، الذين ساءهم ان تسيطر فرنسا الجمهورية على مصر . ولم يطل الامر بفرنسا حتى اضطرت الى الانسحاب من مصر . وارسلت الجنرال سيبستيان لازالة الفتور في العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية، ولنجح سيبستيان في مسعاه . مما اغضب روسيا التي سارعت الى الاستيلاء على بلاد الافلاق والبغدان في عام ١٨٠٦ م ، مما ادى الى نشوب الحرب من جديد بين الدولة العثمانية وروسيا . وانضمت انكلترا الى روسيا وارسلت اسطولها البحري بقيادة اللورد «دوق وورث» لمحاصرة الدردنيل . وطلبت من سفيرها في اسلام بول

الطلب من الدولة العثمانية تسليم قلاع الدردنيل وجميع سفن الاسطول العثماني الى الانكليز ، والتنازل عن الافلاق والبغدان الى روسيا ، وطرد الجنرال الفرنسي سبستيان من اسلام بول ، واعلان الحرب على فرنسا ، واذا رفضت الدولة العثمانية هذه المطالب فان الاسطول الانكليزي سيهاجم اسلام بول ويدخلها عنوة . وكان من الطبيعي ان ترفض الدولة العثمانية هذه الشروط المهينة . مما دفع انكلترا الى تنفيذ وعيدها ، فاقتحم الاسطول الانجليزي الدردنيل في عام ١٨٠٧ م واستولوا على ميناء غاليبولي وحطموا السفن العثمانية المتواجدة فيه . وكاد السلطان سليم الثالث يستجيب لمطالب انكلترا ، لولا ان السفير الفرنسي الجنرال سبستيان حرضه على الصمود في وجه الاطماع الانجليزية . فاستقر رأي السلطان على المقاومة ، ونشط العلماء في اذكاء الروح الحماسية في الجنود والاهالي ، واشتغل الجميع في تحصين اسلام بول ، وعندما ادرك القائد الانكليزي أن سفنه توشك ان تنحصر بين بوغاز الدردنيل والبوسفور ، اضطر الى الانسحاب مخلفـــا

اثناء انسحابه بخسائر قليلة ، وغرقت عدة سفن بريطانية بفعل قذائف المدافع العثمانية .

وفي عام ١٨١٥ م واجهت الدولة العثمانية خطر اندلاع عصيان في الصرب بقيادة ميلوش أوبرينوفتش ، واستمرت الحرب بين العثمانيين والثائرين حتى عام ١٨١٧ م حين رضخت الدولة العثمانية لشروط ميلوش بتعيينه حاكماً على الصرب تحت الحماية العثمانية .

وفي عام ١٨٢٢ م تمكن اليونانيون من احراز نصر على الجيش العثماني في معركة « الدروموبيل » ، واعقب ذلك الحاق الهزيمة بالاسطول العثماني في جزيرة ساقز بعد معركة استشهد فيها حوالي ثلاثة آلاف جندي عثماني . فسارع السلطان العثماني محمود الثاني الى اصدار أوامره الى والي مصر محمد علي باشا لمواجهة الجيوش اليونانية . فارسل محمد علي باشا ولده ابراهيم باشا على رأس جيش كبير التقى بالاسطول العثماني في جزيرة رودس . ثم سار الى جزيرة كريت فاستولى عليها ، ثم يمم شطر الشواطىء اليونانية ، وفي تلك الاثناء كانت النجدات النصرانية تتوالى على اليونانيين ، وانضم الى المتطوعين لنجدة اليونان عدد

كبير من مشاعير الشخصيات الاوربية والامريكية ، ومنهم نجل جورج واشنطن محرر امريكا ، والشاعر الانجليزي الشهير اللورد بيرون ، واللورد الانجليزي كوشران الذي عينه اليونانيون قائداً عاماً لجيوشهم البرية والبحرية ، وزاد من خطورة الوضع قيام روسيا بمساعدة اليونانيين ، ثم انضمت النمسا وبروسيا وفرنسا الى روسيا في تقديم المساعدة لليونان ، مما اضطر الدولة العثمانية اخيرا الى القبول بتوقيع معاهدة اق كرمان في عام ١٨٢٦ م ، مقدمة بموجبها تنازلات عديدة لروسيا ، ولم تتطرق المعاهدة بأي شكل من الاشكال الى الوضع في اليونان ، مما اعطى الدول النصرانية الفرصة لاثارة المسألة اليونانية في عام ١٨٢٧م، حيث طلبت فرنسا وانكلترا وروسيا من الدولة العثمانية منح اليونان الاستقلال الكامل ، وحين رفضت الدولة العثمانية هذا الطلب ، تحركت الاساطيل الصليبية لمواجهة الاسطول العثماني والمصري ، وكان الاسطول الفرنسي بقيادة الاميرال « رني » ، والاسطول الروسي بقيادة الاميرال هيدن ، والاسطول الانجليزي

بقيادة اللورد كودرنجتون الذي تولى القيادة العامة للأساطيل المتحالفة ، وتمكن المتحالفون من تدمير عدد من السفن الحربية العثمانية ، وأعلنت الحرب رسمياً في ١١ شوال ١٢٤٣ هـ — ٢٦ نيسان ١٨٢٨ م ، ثم عقدت الدول الثلاث مؤتمراً في لندن أعلنت فيه استقلال اليونان رغماً عن الدولة العثمانية ، وأعقب ذلك استيلاء الجيش الروسي على مدينة « ياش » عاصمة بلاد البغدان ، ثم تقدمت نحو بخارست عاصمة الافلاق واحتلتها ، ثم قدم القيصر نقولا ليقود بنفسه الجيوش الروسية ويحاصر مدينة اسكي استانبول ، ثم انسحب منها ليحاصر مدينة وارنة التي استعصت عليه لولا خيانة أحد قواد الجيش العثماني المسمى يوسف باشا ، فتمكن نقولا من احتلالها ، ثم تقدم نحو مدينة « ادرنة » واحتلها ، وأصبحت الطريق الى « اسلام بول » خالية من أية مقاومة ذات شأن . مما اضطر الدولة العثمانية الى الطلب من بروسيا التوسط في عقد معاهدة صلح مع روسيا ، وتم عقد المعاهدة في ادرنة في عام ١٨٢٩م، وقدمت الدولة العثمانية بموجبها تنازلات جديدة

روسيا ، كان من أهمها اعتراف السلطان العثماني بقرارات مؤتمر لندن ١٨٢٧ م التي قضت باستقلال اليونان عن الدولة العثمانية .

وفي عام ١٨٣٠ م واجهت الدولة العثمانية خطراً جديداً تمثل في غزوة فرنسا للجزائر واحتلالها لها ، واعقب ذلك انشغالها في مواجهة محمد علي باشا والي مصر الذي تمرد على الدولة ومد سيطرته حتى اخترقت بعض المناطق في الاناضول التركي .

بيد أن الخطر الصليبي ما لبث أن كشر عن أنيابه في عام ١٨٥٣ م عندما احتلت الجيوش الروسية بقيادة جورتشاكوف بلاد الافلاق والبغدان ، فاحتدمت الحرب بين الدولة العثمانية والروس من جديد ، وتمكن عمر باشا القائد العثماني من هزيمة الجيوش الروسية ودحرها من الافلاق والبغدان ، وتمكن القائد العثماني عبده باشا من تحقيق انتصارات في جبهة القفقاس ، فطلب القيصر نقولا النجدة من امبراطور النمسا فرنسوا جوزيف الذي اعتذر عن تلبية طلب القيصر ، ولم تلبث الرياح ان هبت في صالح الروس حين تمكن اسطولهم من تحطيم الاسطول العثماني في ميناء سينوب

توسع على البحر الاسود ، مما دفع بانكلترا وفرنسا الى توجيه انذار لروسيا بضرورة ايقاف الحرب . وكان وراء اصدار الانذار البريطاني الفرنسي خشيتهما من قيام روسيا بالاستيلاء على عاصمة الدولة اسلام بول ، وفي عام ١٨٥٤ م عقدت بريطانيا وفرنسا معاهدة مع الدولة العثمانية ، تعهدتا بموجبهـا بمساندتها ضد روسيا ، ولم تلبث الحرب ان احتدمت وحقق الفرنسيون في بدايتها نصرا على الروس قرب نهر « الما » ، ولكن الحرب لم تحسم لصالح أي من المتحاربين ، ولم تلبث حدة الحرب ان تضاءلت ، واعقب ذلك عقد مؤتمر باريس في عام ١٨٥٦ م حيث انتهى الى عقد معاهدة صلح بين المتحاربين .

وفي عام ١٨٦٠ م واجهت الدولة العثمانية خطرا جديدا تمثل في غزو فرنسا لبلاد الشام واستيلائهـا عليها ، ولم تخرج منها الا بعد ان حصلت على امتيازات سياسية واقتصادية جديدة .

وفي عام ١٨٦٧ م اندلع الخطر من الصرب وكريد فاضطرت الدولة الى الانسحاب كليا من الصرب للتفرغ لاخماد ثورة كريد ، ولكن الدول الاوربية تدخلت

لمنع العثمانيين من اتخاذ اية اجراءات عسكرية ضد كريت ، واضطرتها الى حضور مؤتمر عقد في باريس في عام ١٨٦٩ م ، اجبرت فيه الدولة العثمانية على منح الاستقلال لاهل كريت .

وفي عام ١٨٧٧ م عادت روسيا فاعلنت الحرب على الدولة العثمانية بعد ان عقدت معاهدة سرية مع امارة رومانيا ( الافلاق والبغدان ) ، وحدث تطور مفاجيء تمثل في سكوت الدول الاوروبية هذه المرة وعدم مسارعتها للوقوف في وجه روسيا . ولكن ذلك لم يفت في عضد العثمانيين فاصدر شيخ الاسلام فتوى بوجوب القتال على كل مسلم . وحقق الروس في بداية المعارك نصرا على حامية نيكوبلي واستولوا عليها ، ولكنهم انهزموا شر هزيمة اثناء هجومهم على مدينة «بلفنة» الا ان الروس تمكنوا في نهاية الامر من هزيمة الجيش العثماني شر هزيمة ، فاضطر السلطان عبد الحميد الثاني الى طلب توسط الدول الاوروبية لعقد الصلح مع روسيا ، الا انها رفضت الاستجابة له ، لتعطي الفرصة لروسيا ، لاحراز مزيد من الانتصارات ضد الجيوش العثمانية ،

وبعض الروس فعلا من الاستيلاء على ادرنة ، وتقدموا نحو اسلام بول ، حتى وصلوا الى مسافة خمسين كيلو مترا فقط عنها . مما اضطر السلطان الى ايفاد نايف باشا وسرور باشا الى قيصر روسيا نقولا لمفاوضته مباشرة في عقد معاهدة صلح ، وتم التوصل اليها في ١٨٧٨ م بعد ان قدمت الدولة العثمانية تنازلات عديدة الى روسيا . ولكن انكلترا خشيت أن تضيع هذه المعاهدة حدا لامتيازاتها التي سبق ان حصلت عليها من الدولة العثمانية . فسارعت الى ارسال اسطولها البحري ليحتل مضيق البوسفور بحجة حماية العاصمة ، اسلام بول ، من الوقوع في قبضة الروس الذين كانت جيوشهم قد بلغت ضواحيها الغربية . وتمثل رد الفعل الروسي في قيام الامير نوروشاكوف بالطلب من السلطان بالسماح بادخال جزء من الجيش الروسي الى داخل اسلام بول بحجة حماية جميع المسيحيين فيها . ولكن الانجليز اعترضوا على هذا الطلب بشدة . وهددوا الروس باعلان الحرب ضدهم . فسحبوا طلبهم . واكتفوا بابقاء جيوشهم في مواقعها المحيطة باسلام بول ، ثم اجبروا الدولة العثمانية على عقد معاهدة صلح ، سان استيفان ، تنازلت فيها

الدولة عن جميع ممتلكاتها في أوربا . وجوبهت المعاهدة بمعارضة شديدة من انكلترا بشكل خاص ومعظم دول أوربا بشكل عام ، وحدثت بعض الصدامات الحربية بين الروس والانجليز . وأخيراً توسط الامبراطور الالماني غليوم بينهما ، وتم الاتفاق بينهما على ادخال التعديلات التي تطلبها انكلترا على معاهدة « سان استيفان » .

وفي عام ١٨٨١ م هزمت الجيوش العثمانية في تونس امام الجيوش الفرنسية ، واحتلت فرنسا تونس ،واعقب ذلك استيلاء ايطاليا على ليبيا في عام ١٩١١ أثناء تسلط الاتحاديين على الدولة العثمانية حيث كانت عصابة الاتحاد والترقي قد وثبت الى السلطة في عام ١٩٠٨ م ، وخلعت السلطان عبد الحميد الثاني ، وجاءت بالامعة محمد رشاد بدلا عنه . ومنذ ذلك الحين لم يعد للدولة سلطة حقيقية . فلم يبق لها في ظل تسلط الاتحاديين الا الاسم فقط ، وقد أوصل الاتحاديون الدولة الى أضعف حالاتها . وخاصة عندما اقحموها اقحاما في الحرب العالمية الاولى ١٩١٨ م التي أسفرت عن هزيمتها شر هزيمة كانت مقدمة للاجهاز عليها اجهازا نهائيا على يد مصطفى كمال اتاتورك في عام ١٩٢٤ م .

وربعه ...

ولقد تعقبت في الصفحات السابقة، أن أسرد بشيء من التفصيل، ما واجهته الدولة العثمانية من مخططات استهدفت القضاء المبرم عليها، واستئصال شأفتها، ونستطيع بمراجعة سريعة للصفحات السابقة أن ندرك أن الدولة العثمانية اضطرت لخوض غمار الحروب ضد أعدائها بشكل متواصل ومستمر خلال الأعوام التالية :

١٣٠١ م (وهي السنة التي أعلن فيها عثمان بن أرطغرل تأسيس الدولة العثمانية)، ١٣٠٩ - ١٣٥٢م،
١٣٦٥ م، ١٣٧٠ م، ١٣٨٩ م، ١٣٩٤ م، ١٤٠٢ م،
١٤٣٦ م، ١٤٤٢ م، ١٤٤٣، ١٤٤٤ م، ١٤٥٣ م،
١٤٥٥ م، ١٤٥٦ م، ١٤٥٧ م، ١٤٦١ م، ١٤٦٤ م،
١٤٧١ م، ١٤٧٣ م، ١٤٧٤ م، ١٤٩٤ م، ١٥٠٨ م،
١٥١٧ م، ١٥٧١ م، ١٥٩٦ م، ١٦٠١ م، ١٦١٤ م،
١٦٥٧ م، ١٦٦٠ م، ١٦٦٤ م، ١٦٧٣ م، ١٦٨٣ م،
١٦٨٧ م، ١٦٩٥ م، ١٦٩٦ م، ١٦٩٧ م، ١٧٠٩ م،
١٧١٣ م، ١٧١٦ م، ١٧٣٦ م، ١٧٦٢ م، ١٧٦٨ م،
١٧٦٩ م، ١٧٧١ م، ١٧٧٣ م، ١٧٧٤ م، ١٧٨٧ م،
١٧٩٨ م، ١٨٠٦ م، ١٨٠٧ م، ١٨١٥ م، ١٨٢٢ م،
١٨٢٧ م، ١٨٢٨ م، ١٨٣٠ م، ١٨٥٣ م، ١٨٦٠ م،
١٨٦٧ م، ١٨٧٧ م، ١٨٨١ م، ١٩١١ م.

وفي عام ١٩١٨ م أقحمت عصابة الاتحاد والترقي الدولة في الحرب العالمية الاولى حيث انهزمت شر هزيمة مما أدى الى اعطاء الفرصة لأعداء الاسلام . لتنفيـذ مخططهم للقضاء نهائيا على الدولة العثمانية ، سلطنة ؛ وخلافة .

ولعل الذين يتهمون الدولة العثمانية بانها انشغلت طوال عهدها بالحرب والقتال ، يعذرونها في ذلك ، فما أحسب انها كانت تستطيع ان تقف مكتوفة اليدين امام تلك الاحقاد الصليبية التي لم تنقطع مكائدها ضدها طوال سنوات حكمها .

بل اني لأعجب كيف لا تكون الدولة العثمانية دولـة قتال وحرب ، وهي تواجه كل تلك التحديات والمخاطر المتصلة ، المستمرة ، التي لم يخمد لها أوار منذ اول سنة لتاسيس الدولـة العثمـانية ، وحتى اواخر ايامها .

أما ما يزعمه المفترون من أن الدولـة العثمانيـة انشغلت بحروبها عن تحقيق اية انجـازات حضارية تجسد صدق التزامها بالاسلام ، فتلك فرية لن تلبث ان تتهاوى امام هذه الحقائق .

* يؤكد المؤرخ التركي أحمد رفيق في كتابه « بيوك تاريخ عمومي » أي « التاريخ العمومي الكبير » ، أن عثمان بن ارطغرل كان حريصاً على أن يبني في كل مدينة بيزنطية يفتحها الله عليه مسجداً يعين له اماما من العلماء ليفقه المهتدين الجدد الى الاسلام بأمور دينهم الجديد ، وكان أول مسجد امر ببنائه في عام ٦٨٧ هـ ـ ١٢٨٨ م ( قبل تأسيس الدولة العثمانية رسميا ) في قلعة قره جصار .وعين العالم الفقيه دورسون اماماً له .

* وعندما استولى اورخان بن عثمان على مدينتي ازنيك وازميد ، بنى في كل منهما مسجداً والى جانبه مدرسة ، وفي عام ٧٣٦ هـ ـ ١٣٣٥ م ، شهدت الدولة قفزة كبيرة في ميدان النهضة العمرانية، حيث تم تشييد مسجد بورصة الجامع، والحق به بناء كبيرا ليكون مدرسة للعلوم الشرعية . وفي عام ٨٣٨ هـ ـ ١٣٣٦ م ، شيد عثمان مسجداً ومدرسة كبيرة في مدينة أزميت وصفها كارل بروكلمان بانها كانت بمثابة جامعة

حيث يقول في الجزء الثالث من كتابه « تاريخ الشعوب الاسلامية » :

« بعد سقوط مدينة أزميت بيد اورخان . عبَّر اورخان ، بوصفه مسلماً صادقاً ، عن التقدير للمعرفة . تلك التي كانت رعايتها من أعظم عناوين المجد عند الحكام المسلمين في جميع الاجيال . فانشا اول جامعة عثمانية ، وعهد بادارتها الى العالم داود القيصري، وهو عالم تركي تلقى علومه في مصر » .

* وفي عهد بايزيد بن مراد ( بايزيد الصاعقة ) ، بنى العثمانيون مركزاً ضخماً لبناء السفن واصلاحها ( ترسانة ) ، في مدينة غاليبولي ، وتمكنوا في فترة وجيزة من تجهيز نواة قوية للاسطول العثماني الاسلامي، قوامها ستون سفينة مدججة بالسلاح . وما كانوا ليحققوا هذا النجاح لولا ما كان يتمتع به المهندسون والصناع الاتراك من مهارة فنية .

ويعتبر عهد السلطان محمد الفاتح ، أنعم به من فاتح ، على الرغم من انشغاله المستمر بمواجهة أعداء الإسلام ، من أكثر العهود العثمانية التي شهدت انجازات حضارية بارزة ، فقد احتضن المخترع المجري أوربان ، بعد أن اقتنع الفاتح بما نظر عليه من ذكاء ، بأن حديث أوربان عن اختراعه لطريقة جديدة لصنع المدافع لم يكن حديث مشعوذ كما كان يصفه ملوك أوربا الذين عرض عليهم أوربان اختراعه فرفضوه وأهانوه . وانما كان حديث عالم موهوب ، فأمده بكل المعدات والمواد ، وأحاطه بالعديد من المهندسين الاتراك ، حتى تمكن من تصنيع مدفع ضخم أطلق عليه اسم « المدفع السلطاني » ، تيمناً بالسلطان الفاتح . ولم يكتف السلطان الفاتح بذلك الانجاز، بل عهد الى عدد من المهندسين الاتراك بصنع نوع جديد من القنابل لاستعمالها في المدفع السلطاني، ويسجل التاريخ ان الاتراك كانوا أول من استعمل قنابل تحرق كل ما حولها اذا اصطدمت بجسم صلب ، وكانت تلك القنابل تتركب من مزيج من

زيت الزيتون ، والكبريت ، والملح، ومواد اخرى. وكان اول استعمال لهذه القنابل الحارقة في عام ٨٨٢ هـ ـ ١٤٧٧ م ، أثناء حصار العثمانيين لعاصمة البابا «اشكودرا» .

ولم يقف طموح السلطان العالم عند ذلك الحد ، وظل يشجع المهندسين المسلمين الاتراك على تطوير تلك القنابل ، ولم يلبثوا ان اخترعوا نوعاً جديداً من القنابل المتفجرة التي تنفجر بشدة اذا اصطدمت بجسم صلب ، وسجل تاريخ الحروب أن السلطان محمد الفاتح كان اول من استعمل القنابل المتفجرة المصنوعة على أسس علمية في عام ٨٨٥هـ ـ ١٤٨٠م أثناء حصاره لمعقل فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودوس .

ولم يقتصر نبوغ السلطان الفاتح العلمي عند ذلك الحد ، فقد كان بارعاً في فن الهندسة والعلوم الطبيعية، وقد استغل براعته في هذين الحقلين في مواضع كثيرة ، فعندما قرر بناء قلعة روملي حصار على الساحل الأوروبي ، في مواجهة أسوار القسطنطينية امضى عدة أيام مع مهندسيه وهو يستكشف طبيعة الارض ،

ويدرس طبوغرافيتها ، حتى توصل الى اختيار الموقع الذي يبحث فوقه ، والذي ثبت بعد انتهاء بنائها أنه أنسب موقع لبنائها .

وحين قرر السلطان الفاتح مفاجأة نصارى القسطنطينية ، بادخال السفن العثمانية الى مياه الخليج عن طريق نقلها برا لمسافة حوالي ثمانية كيلو مترات ، استغل براعته في العلوم الطبيعية والفن الهندسي ، فقام بعمليات استكشاف متعددة لدراسة طبقة الأرض ، حتى اهتدى الى أنسب المواقع التي تصلح طريقا تمر من فوقه السفن ، ثم عمد الى تلك الطريق فطفق يمهدها ، فتارة يردم المواقع المنخفضة منها ، وتارة يقيم الجسور ، وتارة يدور من حول جبل ، وتارة يزيل الصخور والأشجار ، حتى تمكن من فتح طريق طولها حوالي ثمانية كيلو مترات . فانسابت السفن فوق الأخشاب التي رصت على طول الطريق انسيابا لا تقف امامه حفر ولا نتوءات .

وبفكر العالم ، أدرك الفاتح أن انسياب السفن وهي مصنوعة من الخشب ، فوق الواح الخشب ،

سينتج عنه احتكاك قد يؤدي الى اندلاع السنة اللهب في السفن - وفي خشب الطريق على حد سواء ، فطفق يدلق أطنانا من الزيت والشحم فوق أخشاب الطريق ، حتى يمنع الاحتكاك من جهة ، ويسهل عملية الزلاق السفن فوق الطريق الخشبية من جهة أخرى .

ولعل في هذه الشهادة التي أنقلها عن المؤرخ الفرنسي البارون كارادوفو الذي أوردها في كتابه « مفكروا الاسلام » ( الجزء الأول ) ، خير دليل على ما بلغته الدولة العثمانية من تقدم علمي وحضاري ، اذ يقول :

« ان فتح القسطنطينية لم يقيض للفاتح مصادفة ، ولا لأن الدولة البيزنطية كانت ضعيفة ، بل لأن الفاتح استخدم كل ما كان في عصره من قوة العلم » .

واهتم السلطان العالم بالطب ، وبذل جهوداً كبيرة في دعم العلوم الطبية في زمنه ، فأوعز الى العالم المجاهد الشيخ آق شمس الدين ، الذي كان بارعاً في علوم الطب ، بأن يدون علمه لينتفع به الناس ، فألف كتاباً بعنوان « مادة الحياة » ، كان يعتبر لعصور طويلة من

أهم المراجع الطبيـة التـي تبحث في علم الميكروبات والجراثيم الناقلة للأمراض .

وحين بنى مسجده الذي أطلق عليه اسمه في اسلام بول ، بنى الى جانبه جامعة علمية . وألحق بها مستشفى يضم ستين سريراً ، ليتدرب فيه الطلاب الذين كانوا يدرسون الطب في الجامعة . وأطلق على المستشفى اسم « دار الشفاء » . واستقدم له أشهر أطباء عصره من مسلمين وغير مسلمين . ووضع نظاماً للألقاب العلمية ، فأطلق على المدرسين الكبار في الجامعة لقب « استاذ » ، وعلى مساعديهم لقب « معيد » .

وتعتبر أنظمة التعليم ، وأنظمة التخصص العلمي التي أشرف السلطان الفاتح بنفسه على وضعها ، مفخرة من مفاخره ، وعلامة حضارية بارزة ينبغي أن تسجل للعثمانيين المسلمين . ويمكننا القول أن أنظمة التعليم في الدولة العثمـانية قد قفزت قفزات رائدة على يدي السلطـان الفـاتح . فقـد كانت المدارس التي كـان العثمانيون حريصين على انشائها في كل مدينة تقع تحت سيطرتهم ، ومنذ تأسيس دولتهم على يد عثمان بـن أرطغرل ، تدار بأساليب عادية بسيطة . وكان كـل

معظمهم يتبع الاسلوب الذي يريده . فلما فتح الله القسطنطينية على المسلمين ، أمر السلطان الفاتح بتأسيس مدرسة على مقربة من مسجد أيا صوفيا ، وعهد بادارتها الى العالم المؤمن الشيخ مولا خسرو . ووضع لهذه المدرسة نظاماً خاصاً لم يلبث أن طبق في جميع مدارس الدولة العثمانية .

وبموجب ذلك النظام ، قسمت الدراسة الى مرحلتين ، تبدأ الاولى منهما بتدريس العلوم الشرعية ، والتاريخ الاسلامي ، والعلوم الرياضية ، والعلوم الطبيعية ، وكان على طلاب هذه المرحلة أن يحفظوا أجزاء معينة من القرآن الكريم ، وكانت الدراسة في هذه المرحلة تعرف باسم « دروس الخارج » .

وفي المرحلة الثانية ، كان الطلاب يدرسون اللغة العربية ، ويتوسعون في دراسة الفقه الاسلامي ، ويعطى اهتمام خاصة لدراسة العلوم الرياضية والطبيعية بتوسع ، وكان بامكان كل من ينهي هذه المرحلة التي كانت تعرف باسم « دروس الداخل » أن يتولى بعض الوظائف العادية في الدولة .

ولم يقف طموح السلطان العالم عند هذا الحد من الدعم العلمي ، بل أصر على تطوير المؤسسات العلمية واحتضانها ، بشكل يتناسب مع احتياجات الدولة التي أصبحت آنذاك بمثابة الدولة العظمى .

وكانت الجامعة التي أسسها السلطان العالم الى جانب المسجد الذي سمي باسمه ، علامة بارزة في خطة السلطان التي تهدف الى رفع المستوى التعليمي ، والعلمي ، في الدولة العثمانية . وكانت الدراسة في الجامعة مقسمة الى مرحلتين على النحو التالي :

المرحلة الاولى : ويستطيع الالتحاق بها طلاب مدرسة اياصوفيا وغيرها من المدارس العثمانية ، بعد أن يكونوا قد اجتازوا بنجاح المرحلة الثانية التي تعرف باسم « دروس الداخل » . وكانت الدراسة في هذه المرحلة تتم في ثمانية مدارس متجاورة بتيث حول مسجد السلطان الفاتح . وهذه المرحلة تسمى بالدراسة « الموصلة الى الصحن » . وهي تكاد تكون مطابقة لنظام الدراسة الجامعية الاولى في جامعاتنا المعاصرة التي تمنح الطلاب درجة البكالوريوس او

الثاني . وكان بامكان المتخرجين من هذه المرحلة تسلم وظائف عامة في مؤسسات الدولة ، وخاصة في المدارس .

المرحلة الثانية : وهي أقرب ما تكون الى نظام الدراسة الجامعية العليا المعمول به في جامعاتنا العصرية والتي تمنح الطلاب شهادات التخصص العليا كالماجستير والدكتوراه والاستاذية . وكانت هذه المرحلة تعرف بمرحلة دراسة « الصحن » ، ولا يلتحق بهذه المرحلة الا الذين اجتازوا بنجاح مرحلة الدراسة « الموصلة الى الصحن » . وكانت الدراسة في مرحلة « الصحن » تتم أيضا في ثمانية مدارس متجاورة بنيت هي الاخرى حول مسجد السلطان الفاتح .

ومن أجل التمييز بين مدارس المرحلتين ، كانت مدارس الصحن تعرف باسم المدارس العالية ، وتعرف المدارس الموصلة الى الصحن باسم المدارس الصغرى .

وكانت مدارس الصحن ، تمد مؤسسات الدولة العثمانية باحتياجاتها من المؤهلين في جميع الاختصاصات، من قضاة ومفتين ، وأطباء ، ومدرسين ، ومهندسين ،

وزراعيين ، واقتصاديين . وقد تميز خريجو مدارس الصحن بالالتزام الصارم بالاسلام ، عقيدة ، وعبادة ، واخلاقا ، واستقامة . فقد كانت العلوم الاسلامية مادة اساسية يتلقونها في جميع مراحل دراستهم .

ولقد حرص السلطان العالم على اختيار خيرة علماء عصره ليقوموا بالتدريس في الجامعة والمدارس العثمانية. وكان يبذل قصارى جهده لاستقدام العلماء من شتى الأنحاء ، ويسبغ عليهم رعايته ، ويغدق عليهم من كرمه . فتقاطر العلماء على اسلام بول . لا طمعا في مال السلطان ، وانما تقديرا لحبه للعلم وتكريمه للعلماء .

ولم يمض وقت طويل على تأسيس الجامعة ، حتى طبقت شهرتها الآفاق ، واصبحت مهوى أفئدة العلماء ، واصبح التدريس فيها قمة طموح الكثير من علماء ذلك العصر فقد كان الانضواء في سلك عداد أساتذتها مبعث فخار ، ومثار اعتزاز ، وشهادة بالنبوغ العلمي .

ويعتبر عالم الرياضيات التركي علاء الدين بن محمد المعروف باسم علي كوشجو الذي اناط به السلطان الفاتح مهمة تدريس العلوم الرياضية في مدرسة

إياصوفيا » ثم في الجامعة ، واحداً من أفذاذ علماء الرياضيات في عصره »

وكان هذا العالم من سكان مدينة تبريز التي كانت خاضعة لسيطرة الأمير حسن الطويل الذي تحالف مع نصارى أوربا ضد الدولة العثمانية ، وحدث أن اختاره حسن الطويل ليكون سفيره الى السلطان الفاتح ليعرض عليه عقد معاهدة صلح بعد أن هزم أمام جيوش الدولة العثمانية ، فانتهز السلطان الفاتح مناسبة قدوم ذلك العالم الشهير ، فالح عليه للالتحاق بمدرسة اياصوفيا استاذاً للعلوم الرياضية فيها ، فاستجاب العالم ، والتحق بالمدرسة ، ثم انتقل الى الجامعة عند تأسيسها ، والف كتابين في العلوم الرياضية ، كانا لفترة طويلة من أهم المراجع في العلوم الرياضية ، واطلق على الكتاب الأول اسم « الرسالة المحمدية » ، وعلى الآخر « الرسالة الفتحية » ، تيمناً باسم السلطان محمد الفاتح ، وتقديراً لرعايته للعلم والعلماء »

* وعندما انتصر السلطان سليم الأول على شاه العجم اسماعيل ، واستولى على عاصمته تبريز ، عرض

على استقدام الرعيل من امهر صناع تبريز الى اسلام بول ، ليساهموا في تقدم النهضة العمرانية فيها .

* وفي ٢٤ محرم من عام ٩٢٤هـ (١٥١٨م) ، حضر السلطان سليم أول صلاة جامعة أقيمت في المسجد الذي أمر ببنائه في دمشق على مقربة من قبر محي الدين بن العربي ، وبنى الى جانبه مدرسة كبيرة ، ولا يزال المسجد والمدرسة حتى يومنا هـذا من أبرز المعالم الحضارية في دمشق .

* وفي عهد السلطان سليمان القانوني اتم بناء مسجد ومدرسة على مقربة من قبر أبيه السلطان سليم ، ويشمخ هذا المسجد والمدرسة حتى يومنا هذا شاهد صدق على مدى ما بلغته المهارة الهندسية التركية من رقي وفن ، وواحدا من ابرز المعالم الحضارية العثمانية الاسلامية . كما أمر بتشييد موضع نظام لجر المياه الى اسلام بول ، قام بتنفيذه المهندس التركي الشهير سنان الذي بنى خمسة اقنية فوق قناطر خاصة لتوزيع المياه على جميع أنحاء اسلام بول .

* وفي عهد السلطان أحمد خان الثالث (١٧٠٣م - ١٧٣٠م) ، أمر بتأسيس دار للطباعة في اسلام بول ، وزودت بمطبعة حديثة .

* وفي عهد السلطان محمود خان الأول أمر ببناء مكتبة ضخمة بجوار كل من مسجد الفاتح ، ومسجد اياصوفيا ، ومسجد الوالدة في منطقة اكسراي ، بوسط اسلام بول ، ومسجد قلعه سراي ، كما أمر ببناء سد لتجميع مياه الشرب أطلق عليه اسم « بغجة كدى » .

* وفي عهد السلطان مصطفى خان الثالث ، أمر بتأسيس عدة مختبرات طبية لفحص واردات الدولة من المواشي والبضائع لضمان عدم تسرب أية مواشي مصابة بأية أوبئة ، كما أمر ببناء مكتبة ضخمة فتح أبوابها لعموم الناس ، ووضع مشروعاً لحفر قناة ضخمة تربط نهر دجلة بالبسفور ، لتسهيل عملية نقل المحاصيل الزراعية والبضائع داخل الدولة بتكاليف قليلة ، ولكن وفاة السلطان حالت دون تنفيذ المشروع، وفي عهد هذا السلطان تم اقامة مصهر ضخم لصب

المدافع في اسلام بول . كما أمر بتأسيس مدرسة حربية لتخريج ضباط المدفعية ، وأخرى لضباط البحرية . بإشراف البارون المجري دي توت .

* وفي عهد السلطان عبد العزيز تم وضع مجلة الأحكام الشرعية في عام (١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٩م) ، ليعمل بمقتضاها في المحاكم النظامية . وتعتبر المجلة انجازاً حضارياً في مجال تقنين الأحكام الشرعية .

وبعـــد ...

فان الذيـن يتهمون العثمانيين بأنهم لـم يتركوا بصمات حضارية وراءها يتناسون عدة أمور في غاية الأهمية :

**الأمر الأول :**

انهم عندما يتهمون العثمانيين بالتخلف الحضاري، ينبغي عليهم ان يأخذوا بعين الاعتبار رأي الدكتور احسان حقي في تعليقاته على كتاب « تاريخ الدولة العلية العثمانية » . الذي يلخصه بقوله :

ان الشيء الذي يجب أن لا نسهو عنه حينما نتحدث عن الدولة العثمانية ، هو انه يجب علينا ان نقيمها ،

ولقيم أعمالها ، بالنسبة الى زمانها والى ما كانت عليه الدول الأخرى من سوء حال بالنسبة الى الأزمان السابقة، لا أن نقيمها بالنسبة الى زماننا .

وأحسب أن الذين يوجهون الاتهام للعثمانيين سيخجلون من أنفسهم ، لو أنهم تقيدوا برأي الدكتور احسان حقي ، ذلك أنهم سيدركون أن ما حققه العثمانيون من انجازات حضارية ، ذكرت بعضها قبل قليل ، رغم انشغالهم المستمر في التصدي لمؤامرات ومكائد أعداء الاسلام ، ينبغي أن يسجل لهم ببعداد الفخر والاعتزاز . ويكفي الأتراك العثمانيين فخراً أنه كانت لديهم في اسلام بول وحدها ١٥٠ حماماً عاماً ، في الوقت الذي لم يكن قصر فرساي في باريس يحتوي على حمام .

**الأمر الثاني :**

ان الذين يتهمون الأتراك العثمانيين بأنهم لم يخلفوا وراءهم بصمات حضارية ، يتناسون أن آثارهم الهندسية المتمثلة في آلاف المساجد التي ابتنوها في تركيا ومصر وسوريا وبلغاريا ويوغسلافيا والبانيا

وغيرها من البلاد التي ارتفعت فوقها الرايات العثمانية الاسلامية ، ما زالت حتى يومنا هذا تستقطب اهتمام واعجاب العالم أجمع ، وتنتزع من أشهر المهندسين العالميين شهادات التقدير لما وصلت اليه فنون الهندسة العثمانية من رقي مهني وفني وذوقي .

وفي هذا الصدد يقول أمير البيان في تعليقاته على كتاب حاضر العالم الاسلامي :

لقد شاد بنو عثمان في الاستانة أو اسطنبول من الجوامع والقصور والابراج والحصون والمدارس والتكي والمعاهد الخيرية ما يليق بعاصمة فريدة نظائرها ، واعم ما فيها من المباني الجوامع التي لا توجد في سواها والتي تجد منابرها العديدة ساطعة في الفضاء من كل جانب فتكتسب اسطنبول منظراً لا يجده ناظر في غيرها من المدن لا شرقاً ولا غرباً . وفي الاستانة أسواق عظيمة شهيرة لا توجد في حاضرة شرقية غيرها ، منها السوق الكبيرة التي بناها محمد الفاتح ، وسوق مصر التي بناها سليمان القانوني ( وهما سوقان مسقوفان وفيهما تفرعات كثيرة في داخلهما يحتاج المرء الى ساعات طويلة

حتى يتجول فيها كلها ، وربما تعب قبل أن ينهي جولته «المؤلف» ) .

**الأمر الثالث :**

ان على الذين يتهمون الأتراك العثمانيين بجفاف الفكر ، ونضوب الذوق الفني ، أن يتذكروا ، وخاصة العرب ، أن الأتراك العثمانيين برعوا في تطوير فنون الخط العربي ، وفنون الزخرفة سواء منها الزيتية ، أو الملونة على البلاط القاشاني ، ويستطيع المرء العثور على كنوز فريدة من أصناف الخطوط العربية والزخرفة في أي مسجد من المساجد التي كان للأتراك العثمانيين شرف بنائها ، ولعل الفني فنون الخط العربي والزخرفة الاسلامية هي تلك التي أمر السلطان مراد الرابع بتزيين مسجد أياصوفيا بها . فقام الخطاط التركي الشهير بشكجي زادة مصطفى شلبي بكتابة آيات كريمة من القرآن العظيم بحروف مموهة بالذهب . ويبلغ من ابداع هذا الخطاط التركي انه استطاع كتابة الأحرف بحجم كبير لم يستطعه أحد من قبله ولا من بعده ، اذ بلغ طول حرف الألف وحده عشرة أذرع .

ولقد احسنت مجلة «الأمة» الزاهرة التي تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر ، حين خصصت حيزاً من عددها الثامن والعشرين الصادر في ربيع الآخر ١٤٠٣هـ ـ كانون ثاني ١٩٨٣م ، للحديث عن الخطاط التركي المسلم حامد ايتاش الآمدي (١٨٩١م ـ ١٩٨٢م) ، الذي قدم ، وهو التركي ، ما لم يستطع تقديمه احد من العرب ، من خدمات جليلة لتطوير فنون الخط العربي والزخرفة الاسلامية .

وينبغي ان نشير الى ان العديد من سلاطين العثمانيين برعوا في فنون الخط العربي ، ومنهم السلطان عبد الحميد الأول ، والسلطان عبد العزيز والسلطان مصطفى الثاني .

**الأمر الرابع :**

يتناسى الذين يتهمون الاتراك بالتخلف الحضاري انهم هم الذين حققوا للبلاد العربية اول تقدم حقيقي في مجال المواصلات حين مدوا الخط الحديدي الحجازي الذي ربط ما بين اسلام بول بالمدينة المنورة ، مروراً بسوريا والاردن ، ثم مدوا فروعا له تخترق فلسطين

والعراق ولبنان ، وقد كان ذلك انجازا حضاريا واقتصاديا رائعا ، نستطيع ادراك أهميته حين نعلم ان الدول العربية المعنية فشلت حتى يومنا هذا في اعادة الحياة اليه رغم مئات الاجتماعات التي يعقدها المسؤولون فيها لهذا الغرض .

الأمر الخامس :

ويتناسى المغرضون ما سجله التاريخ للعثمانيين من اهتمام بالعلم والعلماء ، وما شيدوه من مدارس ومكتبات ومستشفيات ، ومصحات للأمراض العقلية ، ويذكر أمير البيان شكيب ارسلان أن عدد المدارس التي تدرس فيها العلوم الشرعية والآداب الشرقية بلغ ١٧٦ مدرسة في اسلام بول وحدها ، كان أشهرها مدرسة اياصوفيا ومدرسة السلطان أحمد ، ومدرسة السليمانية ، وجامعة المحمدية التي بناها السلطان الفاتح .

ويذكر أمير البيان أن عدد المكتبات في اسلام بول بلغ ٤٥ مكتبة تضم ٦٤١٦٢ مجلداً أكثرها مخطوط بالقلـــم .

ويكفي الأتراك العثمانيين فخراً أن أي باحث ، عربياً كان ، أو مسلماً ، أو أجنبياً ، لا يجد مفراً من الاستعانة بعشرات الآلاف من المخطوطات النفيسة النادرة التي تزخر بها مكتبات اسلام بول حتى يومنا هذا . ويكفيهم فخراً أنهم حافظوا طوال قرون ، ورغم كل الظروف ، على أندر نسخ من المصاحف الشريفة ، ومنها مصحف سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقد كان لي شرف التبرك برؤيته في قسم القرآن الكريم في المكتبة السليمانية في اسلام بول أثناء دراستي في جامعتها (١٩٥٨م ـ ١٩٦٥م) .

**الأمر السادس :**

ان الذين يتهمون الأتراك العثمانيين بأنهم لم يتركوا بصماتهم الحضارية الاسلامية في البلاد التي رفعوا فوقها رايتهم ، يتناسون ما قامت وتقوم به الأحقاد الصليبية، ثم الشيوعية ، من حملات قمع وحشية لاستئصال كل مظاهر الحياة الاسلامية ، في يوغسلافيا ، وألبانيا ، واليونان ، وبلغاريا ، وغيرها من البلدان الأوربية ، تلك الحملات التي تضاءلت أمام وحشيتها وحشية

محاكم التفتيش في الأندلس . فلقد بلغ من وحشيتها أن الجنود البلغار لم يكتفوا بقتل المسلمين البلغار في عام ١٩١٢م ، وانما عمدوا الى تصفية دمائهم وشربها . كما يروى أمير البيان شكيب أرسلان في تعليقاته على كتاب « حاضر العالم الاسلامي » ، وهم يتجاهلون الحقيقة التي تؤكد أن البذرة الاسلامية الطيبة التي بذرتها الدولة العثمانية في تلك البلاد . قد صمدت أمام تلك المحن ، واستعصت على حملات الاذابة والاستئصال، وانها ما تزال حتى يومنا ، متمثلة في العديد من ملايين المسلمين في يوغسلافيا ، والبانيا ، وبلغاريا ، وغيرها ، شاهد صدق على أن الأتراك العثمانيين كانوا رسل هداية ، ورجال دعوة ، مثلما كانوا صناديد حرب ، وأبطال قتال .

# ما هي حقيقة الفرية التي تزعم أن السلطان محمد الفاتح أباح القسطنطينية لجنوده ثلاثة أيام يفعلون خلالها ما يشاؤون .. ؟؟

هذه فرية أخرى ، ألصقها الحاقدون المغرضون بالسلطان العثماني محمد الفاتح ، أنعم به من فاتح ، زعموا من خلالها أنه قد أعطى لجنوده مهلة ثلاثة أيام يستبيحون خلالها العاصمة البيزنطية ، القسطنطينية ، يقتلون ، ويذبحون ، ويسلبون ، ويعتدون على الأعراض ، كيفما يشاؤون .

ألا ساء ما يفتري المفترون ، وما يصفون .

وقد تولى كبر هذه الفرية عدد من المؤرخين الأجانب ، وأذكر على سبيل المثال المؤرخ الانجليزي ادوارد شيبرد كريسي ، الذي زعم في كتابه ، تاريخ العثمانيين الأتراك ، أن السلطان الفاتح ، أنعم به من فاتح ، قد خطب في جنده قبيل الهجوم الأخير على القسطنطينية قائلا على حد زعم كريسي :

التي ابيح لكم كل شيء في المدينة ، ولا اريدكم ان تتركوا فيها شيئا فيه حياة ، ما عدا الابنية والارض فقط . . . !

وفي كتاب « احداث شهيرة في التاريخ » الذي نشرته في عام ١٩٦٦م ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، وهي مؤسسة امريكية برعت في دس السم في الدسم عبر منشوراتها . لعل مؤلفا الكتاب صموئيل نتشسون ، ووليام دي ويت ، كلاهما زعموا أنه نص الخطبة التي القاها السلطان الفاتح في جنده قبيل الهجوم الأخير على القسطنطينية . وجاء في تلك الخطبة المزعومة ما يلي :

اني لم اجمعكم في هذا المكان لابعث روح الحماسة فيكم ، لأن هذه الروح لا تنقصكم ، ولكنني جمعتكم لاعرض امامكم المكافأة والثواب الذي سينالكم بعد الهجوم المنتظر ، فامامكم مدينة الكنوز والثروة والجمال التي تزدحم بها الكنائس والقصور . انها مدينة المجد والعز ، التي تشكل قلب العالم . وهي المدينة التي ستستبيحونها غداً ، بعد أن وقفت أعواماً طويلة امام

الأتراك ، وعملت على اضعاف الاسلام ، والحط من اعدائــــه ٠٠ !

ويضغط الحقد بالمؤرخ الانجليزي ادوارد شيبرد كريسي ، فيزعم ، وبئس ما يزعم ، أن السلطان محمد الفاتح ، حين دخل القسطنطينية ، أمر بإقامة احتفال ضخم في قصر الامبراطور البيزنطي المقتول ، وأنه أكثر من شرب النبيذ ، ثم أمر بإحضار الابن الاصغر للدوق لاطوراس (الوكاس الناطوري) ، الذي كـان وزيرا للامبراطور المقتـــول ، وأن السلطان الفـاتح اراد أن يمارس الفاحشة بالفتى الصغير ، فاعترض أبوه ، فاشتد غضب السلطان وأمر بقتل الوزير ، وابنه ، وجميع افراد عائلته ٠٠

ومؤخرا انساقت الموسوعة الامريكية المطبوعة في عـام ١٩٨٠م في حماة الحقد الصليبي ضـــد الاسلام فزعمت ان السلطان الفاتح ، أنعم به من فاتح ، قام باسترقاق غالبية نصارى القسطنطينية ، وساقهم الى أسواق الرقيق في مدينة أدرنه ، حيث تم بيعهم هناك ٠

الا كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبـــا ٠

أرأيتم الى الحقد الصليبي الى أين يشطط به الهوى ، ويسرح به الخيال ... ؟

أرأيتم الى الحقد الصليبي حين تعمى الابصار ، ويرين الصدأ على القلوب ، فتتجرأ على الافتراء بمثل هذه الاكاذيب التي لا يصدقها عقل ، ولا يقبلها منطق .؟

أرأيتم الى الأمانة العلمية كيف يبطل مفعولها حين يتعلق الأمر بالاسلام والمسلمين .. ؟

هل يصدق عاقل أن السلطان المؤمن ، الذي استقبل معركته الأخيرة بالصوم الى الله عز وجل ، تطهرا ، وتقربا ، والتماسا لتأييد الله ونصره ، يمكن أن يقابل نعمة ربه بارتكاب معصية شرب الخمر وارتكاب الفاحشة .. ؟

ألا ، تبت يدا كريسي هذا ، وألف تب .

وتبت يد كل من جرى قلمه أو لسانه بهذه الفرية اللئيمــــة .

وينبغي أن أشير ، بادئ ذي بدء ، الى أن الذين افتروا هذا البهتان العظيم ضد السلطان الفاتح ، استندوا الى عرف كان سائدا في حروب تلك العصور

يقضي بأنه أيما مدينة يطلب منها الاستسلام ، فترفض الاستسلام ، فان من حق فاتحها أن يستبيحها ثلاثة أيام بلياليها كيفما يشاء ، تأديبا لها لرفضها الاستسلام .

لكن الحقيقة الناصعة كما سنبينها بعد قليل ، تؤكد أن السلطان الفاتح لم يعمد الى اتباع هذا العرف حين فتح القسطنطينية . على الرغم من أنه كان قد طلب من الامبراطور البيزنطي قسطنطين الاستسلام في مرتين متتاليتين . كانت الأولى منهما في مساء السادس والعشرين من ربيع الأول من عام ٨٥٧هـ ، وفق السادس من نيسان من عام ١٤٥٣م ، حين أرسل السلطان وزيره محمود باشا الى الامبراطور يطلب منه الاستسلام ، ويعطيه الأمان لجميع النصارى على أموالهم وأرواحهم وأعراضهم وعقيدتهم . فرفض الامبراطور الاستسلام . وكانت المرة الثانية في اليوم الرابع عشر من جمادى الأولى من عام ٨٥٧هـ ، وفق الثالث والعشرين من أيار من عام ١٤٥٣م ، ولكن الامبراطور قسطنطين أصر أمام ضغط مجلس حربه على رفض الاستسلام .

ولقد كان بامكان السلطان الفاتح بموجب ذلك العرف ، وبعد أن أنذر الامبراطور البيزنطي بالاستسلام

مرتين ، لا مرة واحدة ، أن يبيح المدينة لجنوده ، ولكنه لم يفعل ذلك ، لأن التزامه بالاسلام ، وباخلاق الاسلام ، يأتي عنده فوق أية أعراف أو اعتبارات او مبررات أخرى ، ولأنه كان يطمح الى فتح قلوب أهل المدينة ، بعد ان فتح أبواب المدينة .

تلك هي الفرية ، فما هي الحقيقة .. ؟

ان الحقيقة التي تتهاوى أمامها افتراءات الحاقدين، وبهتانهم ، تؤكد أن السلطان محمد الفاتح ، أنعم به من فاتح ، لم يبح القسطنطينية لجنوده لحظة واحدة ، لا ثلاثة أيام كما يزعم المفترون .

**أقول هذا ، وبين يدي أكثر من دليل :**

ففي يوم الاثنين ، التاسع عشر من جمادى الأولى من عام ٨٥٧هـ ، وفي الثامن والعشرين من أيار من عام ١٤٥٣م ، ندب السلطان الفاتح جنده لصيام ذلك اليوم تقرباً الى الله ، وتزكية لنفوسهم ، استعداداً للهجوم النهائي الذي تقرر أن يشن في اليوم التالي .

وما ان آذنت شمس يوم الاثنين بالمغيب ، وأدى المجاهدون صلاة المغرب ، أقبلوا يتناولون افطارهم ، ثم دعا السلطان مجلس حربه ، وقادة جيشه ، الى الاجتماع الأخير قبل بدء الهجوم النهائي ، وخطب فيهم خطبة جاء فيها كما يروي الدكتور سالم الرشيدي في كتابه «محمد الفاتح» ما يلي :

«اذا أعاننا الله عز وجل ففتح علينا القسطنطينية ، فسيتحقق فينا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعجزة من معجزاته العظام ، وسيكون من حظنا ما تضمنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من التقدير والتشريف ، فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً ، أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الاسلام قدراً وشرفاً ، ويجب على كل جندي ان يجعل تعاليم شريعتنا نصب عينيه ، فلا يصدر عن أي واحد منهم ما ينافي هذه التعاليم وليتجنبوا الكنائس والمعابد ، ولا يمسوها بأذى ، وليدعوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون»

وحين تنزل نصر الله عز وجل ، كان أول عمل بدأ به السلطان محمد الفاتح أن خرّ ساجداً على الأرض ، شكراً لله على ما أفاء على المسلمين من نصر مؤزر مبين .

وينقل المؤرخ التركي اسماعيل حامي دنشمند نقلاً عن المؤرخ التركي دوروسوت الذي عاصر الفاتح في الجزء الأول من كتابه « موسوعة التاريخ العثماني » ، وصفاً مؤثراً لأحداث الساعات الأولى التي أعقبت دخول المسلمين الى القسطنطينية قائلاً : ما كاد العثمانيون يدخلون المدينة ، حتى وثب العديد منهم الى أعالي الأسوار يزيلون الرايات البيزنطية من فوقها ، ويرفعون مكانها الرايات الاسلامية العثمانية ، وفي تلك الأثناء ، كان العشرات من المجاهدين يرفعون أصواتهم بالأذان من فوق أسوار المدينة .

**ويستطرد دنشمند قائلاً :**

دخل السلطان الفاتح الى المدينة من باب المدفع ، وتابع مسيره باتجاه كنيسة أياصوفيا ، وكان التأثر الشديد يعلو وجهه بسبب آثار الدماء والخراب التي

يحف بأبنية المدينة ، وعندما وصل الى الكنيسة ترجل عن حصانه ، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى على نعمة النصر ، ثم أمر المؤذن لصلاة الظهر ، فأداها المسلمون جماعة ، ومنذ ذلك الوقت تحولت الكنيسة الى مسجد، وأمر السلطان بالاحتفاظ باسمها القديم ، فأصبح المسجد يعرف باسم مسجد أياصوفيا ، وشرع المسلمون في تغطية الصور التي على جدران الكنيسة ، ولكن دون ازالتها أو اتلافها .

ويصف المؤرخ التركي أحمد رفيق أحداث اليوم الأول لفتح القسطنطينية ، في الجزء السادس من كتابه «التاريخ العمومي الكبير» المطبوع باللغة التركية القديمة ذات الأحرف العربية ، قائلا :

دخل السلطان محمد الفاتح الى القسطنطينية من الباب المسمى باب المدفع « توب كابي » ، واتجه مباشرة الى كنيسة أياصوفيا ، فوجد فيها أعداداً كبيرة من النصارى الذين التجأوا اليها بعد سقوط القسطنطينية، فطمأنهم ، وأمنهم على أرواحهم ، ثم أمر باحضار لوقاس النوطاري ، وزير الامبراطور المقتول قسطنطين ، فأكرمه اكراما يفوق الوصف وأهداه صولجاناً مرصعاً بالجواهر

وطلب منه ان يشرف بنفسه على دفن الامبراطور حسب التقاليد الامبراطورية والكنيسة ، وأعلمه السلطان أن بامكان جميع الذين فروا من المدينة أن يعودوا اليها خلال شهرين ، فمن تأخر عن العودة بعد ذلك تصبح ممتلكاته من حق الدولة العثمانية .

**ويردف احمد رفيق قائلا :**

كان العثمانيون حريصين على الالتزام بقواعد الاسلام . ولذلك كان العدل بين الناس من اهم الأمور التي حرصوا عليها . وكانت معاملتهم للنصارى خالية من أي شكل من اشكال التعصب أو الظلم ، ولم يخطر ببال العثمانيين أن يضطهدوا النصارى بسبب دينهم .

ويصف المؤرخ التركي الصدر الأعظم كامل باشا في كتابه « التاريخ السياسي للدولة العثمانية » الساعات الأولى التي أعقبت دخول المسلمين الى القسطنطينية قائلا :

وصل السلطان الفاتح الى كنيسة أياصوفيا وقت الظهر ، فأمر المؤذن فأذن لصلاة الظهر ، ثم صلى المسلمون صلاة الظهر جماعة في داخل الكنيسة بعد أن

اغلب ممن كان فيها من النصارى الذين التجأوا اليها ، ولما انقضت الصلاة استدعى لوقاس النوطاري وزير الامبراطور المقتول ، فأنعم عليه ، وأمره بأن يتخذ الترتيبات لدفن الامبراطور حسب طقوس الديانة النصرانية ، وتقاليد العائلة الامبراطورية • ويستطرد كامل باشا قائلا :

حرص السلطان الفاتح ، على تهدئة روع اهالي القسطنطينية . فدعا البطريرك يوركي بناديوس الى مائدته ، واكرمه ، واعطاه عصا مرصعة بالجواهر ، وطلب منه ان ينشر اهالي المدينة بأن المسلمين يعطونهم الأمان على حياتهم ، ومعتقداتهم ، واموالهم ، ما داموا يؤدون الجزية للمسلمين ، وان بامكان كل واحد منهم أن يعود لمزاولة عمله ، واكتساب رزقه ، وان بامكان من فروا من المدينة أن يعودوا اليها والى املاكهم فيها من غير خوف •

ويروي الدكتور علي حسون في كتابه « تاريخ الدولة العثمانية » أن السلطان محمد الفاتح – انعم به من فاتح – اندفع على رأس المجاهدين لاقتحام القسطنطينية ، فلما تنزل نصر الله على المسلمين ، حمد

لله وأثنى عليه ، وترحم على الشهداء ، وقرأ الحديث الشريف :

« لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الجيش ذلك الجيش ، ولنعم القائد ذلك القائد » ، ثم أوصى جنده فنهاهم عن السلب والنهب ، ثم ترجّل عن فرسه ، واستقبل القبلة وخر ساجداً لله شكراً ، ثم توجه الى كنيسة أياصوفيا ، فصلى الظهر بها جماعة ، وأعلن عدد من الروم اسلامهم بين يديه ، وهدأ روع من التجأ من النصارى الى الكنيسة ، وأمنهم على حياتهم ودينهم وأموالهم ، وأمر بدفن الامبراطور قسطنطين بما يليق بمكانته لدى قومه ، وأوعز الى البطريق أن يتولى رعاية أمور النصارى دينياً ومدنياً .

وبعد خمسة أيام زار منطقة (غلطة ، وتلفظ قلطه)، وأمر بتأمين أهلها النصارى على أموالهم ، وحياتهم ومعتقداتهم مقابل اداء الجزية للمسلمين .

ويروي المؤرخ التركي المعاصر باقي كورتولوش في كتابه « السلاطين العثمانيون » المطبوع في استانبول عام ١٩٧٨م ، ان السلطان محمد الفاتح ، أنعم به من

بابح . أظهر الاحترام لشعائر النصارى من أهل القسطنطينية ، ولم يتدخل في أمورهم الدينية .

ويروي أمير البيان شكيب ارسلان ، في تعليقاته على كتاب ( حاضر العالم الاسلامي ) أن القسطنطينية شهدت خلال دخول الأتراك موجة من الفوضى والذعر ، وهذا أمر لا يستغرب أن يقع في كل حرب ، فلما دخلها السلطان محمد الفاتح نودي بالأمان ، فهدأ روع الناس، وساد الهدوء .

ويروي الاستاذ محمد فريد بك المحامي في كتابه « تاريخ الدولة العلية العثمانية » ، أن السلطان الفاتح، زار كنيسة أياصوفيا ، وأمر بأن يؤذن فيها بالصلاة اعلانا بجعلها مسجداً جامعاً للمسلمين ، ثم أعلن في كافة الجهات بأنه لا يعارض في اقامة شعائر ديانة النصارى ، ثم جمع أئمة دينهم لينتخبوا بطريركاً جديداً فاختاروا جيناديوس سكولاديوس وكان من أشد معارضي اندماج الكنيسة الارثوذكسية بالكنيسة البابوية . (ويقال ان اسمه الاصلي يودكي كورتسيس)، فاعتمد السلطان هذا الانتخاب ، وجعله رئيساً لطائفة الروم ، واحتفل بتثبيته بنفس الابهة والنظام الذي كان

يعمل للبطارقة في أيام ملوك المسيحيين (النصارى) ، وأعطاه حرسا من العساكر العثمانيين ، ومنحه حق الحكم في القضايا المدنية والدينية والجنائية بكافة أنواعها المتعلقة بالأروام ، وعين معه في ذلك مجلسا مشكلا من أكبر موظفي الكنيسة ، وأعطى هذا الحق في الولايات للمطارنة والقسس .

ويروي الدكتور عبد السلام عبد العزيز فهمي في كتابه « السلطان محمد الفاتح » ، أن السلطان توجه الى المدينة في اليوم الرابع بعد فتحها ( الأصح والثابت أن دخول السلطان الى المدينة كان في اليوم الأول للفتح ) ، وكانت هتافات جنوده تدوي هاتفة ، ما شاء الله ، ولما بلغ الفاتح منتصف المدينة ، توقف عن المسير، وخطب فيمن حوله وقرأ عليهم بلغة عربية فصحى البشارة النبوية الكريمة :

« لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش » .

ثم هنأ جنوده بالنصر ، وأوصاهم بالثبات وعدم الغرور ، والتمسك بالفضيلة وحسن المعاملة ، والرأفة بسكان المدينة .

ـ وسار بموكبه المظفر في الشارع المؤدي الى كنيسة سانت صوفيا (أياصوفيا) ، وترجل أمام الباب ، وانحنى ووضع حفنة من التراب على رأسه خضوعاً لله وشكراً له ( الاصح أنه سجد شكراً لله ) *

ـ ولما اقترب من الباب وصلت الى مسامعه أصوات خافتة حزينة هي أصوات الصلوات والدعوات التي كانت تقام فيها . ولما علم راعي الكنيسة بمقدم السلطان، فتح الباب على مصراعيه . فانتاب الناس خوف عظيم ، وتوجسوا خيفة حينما شاهدوا سلطان العثمانيين بعمامته الاسلامية الكبيرة . وانقطعوا عن الصلاة وساد بينهم صمت رهيب ، كأنما على رؤوسهم الطير ، وتوجه السلطان الى المذبح ، فقابله رجال الكنيسة ، وكانوا مختبئين خلفه وتحت المناضد وخلف الستائر ، فاحسن السلطان استقبالهم ، وأكد حمايته ورعايته لهم ، وأمرهم بأن يكملوا صلواتهم من غير خوف أو فزع ، ثم طلب أن ينصرف الناس الى بيوتهم آمنين على أموالهم ، وأنفسهم ، وأعراضهم ، فنزل هذا الكلام برداً وسلاماً على الناس ، وظهرت على وجوههم علامات الراحة والاطمئنان ، ثم طلب السلطان من أحد المسلمين أن

يؤذن للصلاة من فوق المذبح ، فأصبحت كنيسة أياصوفيا منذ ذلك الوقت مسجداً من أعظم مساجد الاسلام .

**ويردف الدكتور عبد السلام عبد العزيز فهمي قائلا :**

وسلك السلطان الفاتح مع أهل القسطنطينية سياسة التسامح والرأفة ، وأمر جنوده بحسن معاملة من في أيديهم من الأسرى والرفق بهم ، وافتدى عدداً كبيراً من الأسرى من ماله الخاص ، وخاصة أمراء اليونان ، ورجال الدين ، واجتمع مع الاساقفة وهدأ من روعهم ، وطمأنهم الى المحافظة على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم ، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد فانتخبوا أجناديوس بطريركا ، وتوجه هذا بعد انتخابه في موكب حافل من الاساقفة الى مقر السلطان ،فاستقبله السلطان محمد الفاتح بحفاوة بالغة ، وأكرمه أيما تكريم ، وتناول معه الطعام ، وتحدث معه في موضوعات شتى ، دينية وسياسية واجتماعية ، وخرج البطريرك من لقاء السلطان ، وقد تغيرت فكرته تماماً عن سلطان العثمانيين وعن الأتراك ، بل والمسلمين عامة ، وشعر أنه أمام سلطان مثقف صاحب رسالة وعقيدة دينية

راسخة وانسانية رفيعة ، ورجولة مكتملة ، ولم يكن الروم أنفسهم أقل تأثرا ودهشة من بطريركهم . فقد كانوا يتصورون أن القتل العام لا بد لاحقهم ، فلم تمض أيام قليلة حتى كان الناس يستأنفون حياتهم المدنية العادية في اطمئنان وسلام .

ولعل قائلا يقول ان هذه الادلة التى سقتها من مراجع تركية أو عربية اسلامية ليست مقنعة كونها تصدر عن مسلمين ، ولهؤلاء المتشككين أسوق هذه الادلة من شهادات المؤرخين النصارى التي تفند ما زعمه المغرضون من ان العثمانيين المسلمين ، ارتكبوا المجازر ، واستباحوا الحرمات والاعراض عند دخولهم القسطنطينية .

* يقول باول ويتك (Paul Wettick) ، في كتابه « تأسيس الامبراطورية العثمانية » .

كان النصارى الارثوذكس يكرهون بشدة أبناء دينهم من النصارى اللاتين (الكاثوليك) ، وخاصة النصارى من أهل جنوه ، بسبب ما كانوا يلاقونه منهم من استغلال واضطهاد ، ولذلك لم يكن غريبا أن ينتشر بين النصارى والارثوذكس شعار يقول :

اذا كان لا بد من الوقوع تحت سيطرة طرف آخر ، فاننا نفضل ان نقع تحت سيطرة الأتراك المسلمين ، من ان يسيطر علينا اللاتين (الكاثوليك) •

● وينقل أمير البيان عن (كارادوكو) المؤرخ الفرنسي في كتابه (مفكرو الاسلام) أن محمداً الفاتح يوم دخل كنيسة اياصوفيا ، أراد أن يراعي شعور النصارى ، فلم يشأ ان يمحو العديد من صور الفسيفساء وغيرها التي امتلأت بها جدران الكنيسة ، وكان بامكانه ان يفعل ، وانما أمر بان تغطى بالجبص ، لأن الاسلام يحرم الصور •

ويروي أمير البيان ، أنه عندما دخل المسلمون القسطنطينية ، التجأت جموع غفيرة من الرجال والنساء والأطفال الى كنيسة القيامة ، وكانوا يعتقدون انه متى وصل الأتراك المسلمون الى قسطنطين الكبير ، سيظهر لهم ملك في السماء ، فيهزمهم ويطردهم من المدينة ، فلما اجتاز المسلمون العمود ضج النصارى في الكنيسة بالعويل ولم يهدأ روعهم الا بعد أن وصل السلطان محمد الفاتح ، وأمنهم على أرواحهم وأموالهم وديانتهم •

ويشير امير البيان الى فرية أطلقها الحاقدون . فزعموا ان المسلمين الأتراك ذبحوا كل من كان في اياصوفيا من النصارى فيقول :

« وليس بصحيح ما يزعمه بعضهم من أنهم ذبحوهم بالترك لم يذبحوا هنالك أحداً وما لبثوا أن أطلقوا سبيل أولئك الأسرى جميعاً » .

* ولتكتسب شهادة الكاتبة الامريكية الدكتورة ماري ملز باتريك مؤلفة كتاب « سلاطين بني عثمان الخمسة » . اهمية خاصة . ذلك أن هذه المؤلفة الامريكية تكاد تكون من أشد المؤلفين النصارى حقداً على العثمانيين بشكل خاص . وعلى الاسلام ذاته بشكل عام .

**تقول الدكتورة ماري ملز باتريك بالحرف الواحد :**

والواقع ان السلطان محمد الفاتح قد اظهر تسامحاً عظيماً مع المسيحيين .

وكان لكل ملة في ذلك الحين ( زمن السلطان الفاتح ) رئيس ديني لا يخاطب غير حكومة السلطان ذاتها مباشرة . ولكل ملة من هذه الملل مدارسها الخاصة، واماكن للعبادة وأديرة . كما أنه كان لا يتدخل أحد في ماليتها . وكانت تطلق لهم الحرية في تكلم اللغة التي يريدونها .

● ويقول المستشرق الالماني كارل بروكلمان في كتابه « تاريخ الشعوب الاسلامية : الأتراك العثمانيون وحضارتهم » :

لم يستطع العثمانيون أن يشقوا طريقهم الى المدينة الا بهجوم مباشر شنوه في ٢٩ نوار (أيار) ١٤٥٣م ، وصرع الامبراطور في القتال الذي دار في الشوارع حتى اذا انتصف النهار دخل محمد (السلطان الفاتح) بنفسه الى المدينة وأصدر أمره الى جيوشه بوقف المجزرة .

تعليـــق :

( هذه مغالطة كبيرة من بروكلمان . فما كان يحدث في ذلك الوقت لم يكن الا قتالا داميا . كان ضحاياه من المسلمين والنصارى من غير تفريق . وليس مجزرة كما يزعم بروكلمان في محاولة منه لتشويه سمعة العثمانيين المسلمين ) .

ويردف بروكلمان قائلا :

ــ وأيا ما كان ، فقد عمل محمد (السلطان الفاتح) على تنظيم أحوال اليونان الروم المغلوبين (سكان القسطنطينية) للتو والساعة ، واعترف وفقا للفكرة

الاسلامية المعززة بالتقاليد الدينية ، بجميع السلطات الدينية اليونانية ، بل انه زادها قوة الى قوة بان أوكل اليها أمر القضاء المدني وتطبيق احكامه على أتباعها ، أي نصارى القسطنطينية ·

**ويستطرد بروكلمان قائلا :**

وكان من اهم أهداف محمد (السلطان الفاتح) ، قبل كل شيء ، أن يعمل على زيادة عدد السكان في العاصمة ، بعد أن تقلص وتناقص ( بسبب الهجرة قبل الفتح والفرار قبيل الفتح ) ولم يكد يعين في منصب البطريركية ممثلا حازماً للكنيسة الوطنية ، حتى رجع الى أرض الوطن (القسطنطينية) ، بناء على دعوته ( دعوة البطريرك الجديد ) عدد غفير من الروم الذين نزحوا عن ديارهم قبل الكارثة ·

واني لأكاد أجزم ان هذا التساؤل يكاد يقفز من فم كل قارئ لكلام بروكلمان :

ترى ··· هل كان هؤلاء النصارى يعودون الى مدينتهم بهذه السرعة ، لو كان صحيحاً ما يزعمه المفترون من ان العثمانيين المسلمين ارتكبوا المجازر طيلة ثلاثة أيام ضد من بقي في المدينة من النصارى ··· ؟

* ويقول المؤرخ المعاصر برنارد لويس رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الافريقية والشرقية بجامعة لندن ، في كتابه « الغرب والشرق الأوسط » ، الذي عربه الدكتور نبيل صبحي الطويل ، ونشر بالعربية في عام ١٩٦٥م :

لقد اصبح اليونانيون الارثوذكس مواطنين تابعين للسلطان العثماني (محمد الفاتح) ولم يعودوا أعداء يخشى جانبهم بعد ان تحولوا الى جيران مسالمين .

وفي نظر العالم الاسلامي كانت المسيحية (النصرانية) واليهودية دينين سماويين، ينظر اليهما المسلمون نظرة تسامح . وقد انعكست هذه النظرة المتسامحة من المسلمين في المعاملة الحسنة ، والتسامح الكبير الذي يلقاه اتباع الديانة المسيحية (النصارى) في المجتمعات الاسلامية . بالرغم من موقف المسيحيين كديانة منافسة.

ويستطرد برنارد لويس في موضع آخر من كتابه الحديث عن تسامح الاسلام مع اتباع الديانات الأخرى فينقل عن ت٠ ا٠ لورنس قوله :

ولقد نجح الاسلام ، حيث فشلت المسيحية (النصرانية) ، بمزج الايمان العميق والتسامح الديني

الذي لم يشمل فقط غير المسلمين من الأديان الأخرى بل شمل هذا التسامح حتى الهراطقة والكفار .

* وينقل الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور في كتابه « تاريخ اوربا في العصور الوسطى » . عن المؤرخ النصراني بيكر قوله :

اما الديانة الاسلامية نفسها فقد وجدت سبيلها الى قلوب نسبة كبيرة من اهالي البلاد المفتوحة ، بدليل ما أجمعت عليه الوثائق من تسامح العرب ( الاصح أن يقول المسلمين ) المطلق مع المسيحيين واليهود على حد سواء ، وهو تسامح لم يحظوا به في ظل حكامهم السابقين .

ولا اكتفي بهذه الشهادات التي سقتها ، ينبغي ان انبه الى ان السلطان محمد الفاتح لم يظهر ما اظهره من التسامح مع نصارى القسطنطينية الا بدافع التزامه الصادق بالاسلام العظيم ، وتاسيا بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، ثم بخلفائه الراشدين من بعده ، الذين امتلأت صحائف تاريخهم بمواقف التسامح الكريم مع اعدائهم .

# مراجع الكتاب

١ ـ كتاب « تاريخ الترك في آسيا الصغرى » « لغة انجليزية » تأليف : المستشرق الروسي بارتولد،

٢ ـ كتاب « العرب والأتراك » تأليف : الدكتور عبد الكريم غرايبة ، الناشر : جامعة دمشق ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م .

٣ ـ كتاب «التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية» تأليف : الصدر الاعظم كامل باشا . مطبوع باللغة التركية القديمة (أحرف عربية) في عام ١٣٢٧هـ استانبول .

٤ ـ كتاب « مأساة بني عثمان » تأليف : قادر مصر اوغلو . مطبوع باللغة التركية الحديثة ( أحرف لاتينية ) في عام ١٩٧٩م . استانبول .

٥ ـ كتاب « التاريخ العثماني المصور » تأليف : عبد القادر زاده أوغلو . مطبوع بالتركية الحديثة في عام ١٩٨١م . استانبول .

٦ ـ كتاب « محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية » تأليف : الدكتور عمر عبد العزيز عمر ، ١٩٧٥م.

٧ ـ كتاب « العرب والترك » تأليف : محمد جميل بيهم .

٨ ـ كتاب « التاريخ العمومي الكبير » ستة أجزاء ، تأليف : أحمد رفيق . مطبوعة بالتركية القديمة في عام ١٣٢٧هـ . استانبول .

٩ ـ مجلة «المشرق» الصادرة عن ادارة كلية القديس يوسف ، رئيس التحرير : الأب لويس شيخو اليسوعي ، عدد شهر آذار من عام ١٩١١م . وعدد شهر تشرين ثاني من عام ١٩١١م .

١٠ـ كتاب « تأسيس الامبراطورية العثمانية » « لغة انجليزية » تأليف : هيربرت آدمز جيبونز . ألف الكتاب في عام ١٧٩٤م وتم طبعه في عام ١٩١٦م .

١١ـ كتاب « موسوعة التاريخ العثماني » ـ أربعة أجزاء ـ تأليف : اسماعيل حامي دنشمند ، مطبوع بالتركية الحديثة في عام ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ ، ١٩٥٠ ، ١٩٥٥ ، استانبول .

١٢ـ كتاب « أركان الدولة العثمانية » تأليف : اسماعيل حامي دنشمند . مطبوع بالتركية الحديثة ، ١٩٧١م . استانبول .

١٣ـ كتاب « التاريخ العثماني في نظر الغرب » تأليف : اسماعيل حامي دنشمند ، مطبوع بالتركية الحديثة في عام ١٩٧١ ، استانبول ٠

١٤ـ كتاب « تاريخ الشعوب الاسلامية/الاتراك العثمانيون وحضارتهم » تأليف : كارل بروكلمان. قام بالترجمة الدكتور نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي . مطبوع في عام ١٩٦١م ، بيروت ٠

١٥ـ كتاب « تاريخ جودت » ـ ١٢ جزء ـ تأليف المؤرخ التركي جودت . طبع بالتركية القديمة باشراف وزارة المعارف العثمانية في عام ١٣٠٩هـ ٠

١٦ـ صحيفة فلسطين : الصادرة في بيت المقدس ، عدد ١٩٣٦/٨/٢٤م ٠

١٧ـ كتاب « خطر اليهودية العالمية على الاسلام والمسيحية » تأليف : عبدالله التل ، ١٩٧٩م ٠

١٨ـ كتاب « جذور البلاء » تأليف : عبدالله التل ، ١٩٧٨م ٠

١٩ـ كتاب « الافعى اليهودية في معاقل الاسلام » تأليف : عبدالله التل ٠

٢٠- كتاب « أتاتورك منقذ تركيا وباني نهضتها الحديثة » تأليف : سليم الصويص المحامي ، ١٩٧٠م ، عمان •

٢١- كتاب « مكائد اليهودية عبر التاريخ » تأليف : عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني ، ١٩٧٨م •

٢٢- كتاب « موجز تاريخ الشرق الأوسط من ظهور الاسلام الى الوقت الحاضر » تأليف : جورج ستودارد ، ترجمة : عجاج نويهض ، تعليق : الأمير شكيب ارسلان ، مطبوع في عام ١٣٩٤هـ - ١٩٧٣م •

٢٣- كتاب « محاضرات عن مؤتمر لوزان وآثاره في البلاد العربية » تأليف : الدكتور فاضل حسين ، ١٩٥٨م •

٢٤- كتاب « سلاطين بني عثمان الخمسة » تأليف : ماري ملز باتريك ، ترجمة : حنا غصن ، كامل صروة ، كامل صموئيل مسيحة ، ١٩٢٣م ، بيروت •

٢٥ـ كتاب « الغرب والشرق الأوسط » تأليف : برنارد لويس ، ترجمة : الدكتور نبيل صبحي الطويل ، ١٩٦٥م .

٢٦ـ كتاب « الكامل في التاريخ » ـ ١٣ مجلداً ـ تأليف : عز الدين أبي الحسن الشيباني المعروف بابن الأثير .

٢٧ـ كتاب « خطط الشام » ـ ٦ أجزاء ـ تأليف : محمد كرد علي ، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م .

٢٨ـ كتاب « تاريخ الدولة العثمانية » تأليف : الدكتور علي حسون ، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

٢٩ـ كتاب « السلطان محمد الفاتح » تأليف : الدكتور عبد السلام فهمي عبد العزيز ، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م .

٣٠ـ كتاب « تاريخ الدولة العلية العثمانية » تأليف : محمد فريد بك المحامي ، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م . تحقيق : الدكتور احسان حقي .

٣١ـ كتاب « التاريخ الحديث ـ الشعوب الاسلامية ـ الأتراك العثمانيون » تأليف : الدكتور عبد العزيز سليمان نوار ، ١٩٧٣م .

٣٢ـ مجلة «العربي» الكويت ، عدد محرم ١٤٠٢هـ ـ نوفمبر ١٩٨١م .

٣٣ـ مجلة «الأمة» قطر ، عدد ربيع الآخر ١٤٠٣هـ ـ كانون ثاني ١٩٨٣م .

٣٤ـ كتاب « تاريخ العثمانيين الأتراك » تأليف : ادوارد شيبرد كريسي ، طبع بالانجليزية في بيروت عام ١٩٦١م .

٣٥ـ كتاب « أحداث شهيرة في التاريخ » تأليف : صموئيل نستسون ووليام دي ويت ، ١٩٦٩م .

٣٦ـ الموسوعة الامريكية ( طبعة عام ١٩٨٠م ) .

٣٧ـ كتاب « محمد الفاتح » تأليف : الدكتور سالم الرشيدي .

٣٨ـ كتاب « السلاطين العثمانيون » تأليف : باقي كورتولوش ، طبع بالتركية الحديثة في عام ١٩٧٨م .

٣٩ـ كتاب « تأسيس الامبراطورية العثمانية » تأليف : باول ويتك ٠

٤٠ـ كتاب « تاريخ أوربا في العصور الوسطى » تأليف: الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، ١٩٧٢م ٠

٤١ـ كتاب « انتشار الاسلام في الاناضول » تأليف : عثمان شتين ، طبع بالتركية الحديثة عام ١٩٨١م استانبول ٠

# الفهـــرس

رقم الايداع لدى
مديرية المكتبات والوثائق الوطنية
(٢٦٩) /٥/١٩٨٣



توزيع

دار الفرقان للنشر والتوزيع

عمان – جبل الحسين – شارع خالد بن الوليد

ص.ب ٩٢١٥٢٦ – هاتف ٦٦٠٩٣٧

جمعية عمال المطابع التعاونية – عمان

الثمن ٧٠٠ فلس